A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

F.A.U.B. LIBRARY

892.78
M663thA
c.1

ثورة الهند

او

المرأة الصابرة

وهي رواية تاريخية ادبية

ترجمها من اللغة الفارسية الى العربية

المرزا يوسف خان

(المستوفي الاشنياني ابن اعتصام دفتر)

« طبعت في مطبعة الهلال بمصر سنة ١٣١٨ﻫ الموافقة سنة ١٩٠٠ م »

على نفقة ادارة الهلال

الميرزا يوسف خان

« المستوفي الاشتياني ابن اعتصام دفتر »

(مترجم هذه الرواية)

افادة من المترجم

لا يخفى على الافاضل العظام حسن وقوع الروايات لدى طبائعهم الغالبة واي حكمة ابلغ واكفى لتبصير المتيقظ من التأمل بنظرٍ ثاقب في مجاري حالات الامم واستيفاء احوال الغابرين لانها تشتمل على كثير من الشؤون الجمة التي لا يمكننى التوسع في استيعابها وبيان حقائقها على ان مطالعها يتعظ بها ويعظ ويستفيد منها ويفيد . ثم ان رواية (ثورة الهند) التي نحن بصدد ترجمتها للعربية من الروايات النادرة الصحيحة الآخذة بمجامع القلوب ترجمت من الانكليزية الى الفارسية وطبعت فى طهران عاصمة دولتنا سنة ١٣٠٤ فقبلتها الطبائع وتناقلتها الالسنة . فاحببت ان اعربها واهديها لاندية الفضلاء الذين لا يجيدون قراءة اللغة الفارسية فترجمتها الى للعربية بالحرف الواحد وما آليت جهدًا في تنميق العبارة وأن عثر فيها على قافية او سجع فانهُ قد جرى على سنٍ قلمي . ومع كوني فارسي الاصل معترفًا باني لست ممن يجيل جواده في هذا المضمار ولا ممن لهم اقتدار على خوض عباب ذلك البحر لا ارى لي باعثًا لتمهيد العذر ان وقفوا على زلاتي وقلما ينسنى لكاتب العصمة منها . هذا واعلم اني لا اخلو من ودودٍ يمدح او حسود يقدح فاقول ان احسنت فحسبي وان كنت اسأت فارجو الاغماض لا الاعتراض

(تبريز . ايران) (الميرزا يوسف خان المستوفي الاشتياني)

فاتحة الرّواية

لا يخفى على الاذكياء المتدرّبين باحوال العالم · والمضطلعين بفنّ التاريخ ان من اعظم السوانح المدهشة والفجع الوقائع الموحشة التي اتفقت في الكرة الارضية عام ١٨٥٧ من الميلاد الموافق سنة ١٢٧٤ من الهجرة هي بلوى الهند التي اكتنفت اقطار هندستان بتمامها · فتزلزلت من وقوعها اركان تخيلات السياسيين وانهدمت مباني سياسة انكلترة وزعزعت الفتن الداخلية وعصاوة الاهالي استيلاءها وكادت تنقضي سلطتها عن هذه المستعمرة الجديدة واورثت تلك الانقلابات لهذه الدولة العظيمة خسائر جسيمة من المال والرجال مما يفوق طور التصديق

اما علل تلك الفاجعة واسبابها الظاهرية على ما وقع عليها اقرار ساسة انكلترة فهي انها نشأت من توارد الافكار على هيجان ملي وتظاهرات عظيمة ارادوا بها التخلص من ربقة تسلط انكلترا ونفوذها واستقلالها · والذي سبب اهاجة الخواطر سوء معاملة لورد (دالهوزي) حاكم الهند وعدم مبالاته وقلة حزمه وتحقيره للناس فزرعت سيئات سياسته في احكامه بذر البغضاء والنفور في القلوب فملت الطبائع وانكسرت الضمائر فبلغ سيل العصيان الزّبى · وخربت قصور وعمرت قبور

مضت على الامة البريطانية مدة خمسة وسبعين سنة من بدء تسلطها على هذه الممالك الفسيحة والمسالك الوسيعة حتى تغلبت عليها وحسنت تصرفاتها في اقاليمها الشاسعة فما لبثت ان تسابقت جرائدها وتزاحمت على تملئة اعمدة صحفها بما ينبئ عن كمال سرورهم وغلبة غرورهم فمن بعض ذلك ما يأتي :

« طالما سعت الملل واشتاقت الدول وحاول السلاطين بعزمهم الراسخ وهممهم الثابتة ان يستعمروا اقليماً من اقاليم الهند او يتملكوا بقعة من بقاعها او يسخّروا بلداً من بلادها زيادة على سلطنتهم كما هو دأبهم لكنهم طلبوا محالاً وحالت الاقدار بينهم وبين تمنياتهم فسخرتها دولة انكلترة بتدابيرها الصائبة وسيوفها الباترة وتوغلت جيوشها في سهولها وحزونها وارجفت القلوب بسطوتها حتى رقت مراقي الفلاح وانقادت لها هذه الشعوب المختلفة والامم الوحشية واتبعوا قوانينها باسهل الوسائل فحكمت دولة انكلترة على اكثر من ٢٥٠ مليون نسمة تقريباً »

هذا وما انقضت برهة من الزمان على تلك الوداعة والاستكانة حتى حدث هذا الشغب والهياج فتغيرت اطوارها وخضعت نواصيها وايقظتها نار الفتنة من سنة الغفلة وتحركت حزازاتٌ تمكنت في القلوب منذ زمان طويل وغلت مراجل الصدور بالضغائن الكامنة وجعلت تفرخ وتبيض فيها حتى هاجوا وماجوا وعمت نار الفساد كل الارجاء واتسع الخرق على الرَّاقع

واول طغيان ظهر ضد انكلتره من الفرقتين الخامسة عشرة والعشرين فاتبعهما جمٌّ غفير وتجمعت طوائف الهنود وتحالفوا على الثبات في الثورة فاضطرمت نيرانها اولاً من (بنكاله) ثم انتشبت وازدادت بالتدريج حتى اشتملت بالامصار واحاطت بها احاطة العقود بالاعناق

وفي ابتداء الحرب انهزمت الطغاة في ميرته ثم اجتمع الاهالي فقبلوا سلطانهم الاسبق الذي كان من سلالة الكوركانيين على السلطنة فنبوا سربر الملك في (دهلي) وفي اثناء ذلك ثار اهل (كلكوتا) بتمامها وقتل في مدة الهياج ثلاثة من قواد انكلتره واعاظم ضباطها وطغت على اثرها اهالي مملكة (اوده) واستقرت العساكر والعصاة على الفتك والقتل حتى ضاقت ميادين المجال وتهللت ثنايا المنابا

ثم اتسعت دائرة الفساد فادركت بلاد (آكره) و (بومباي) وكابدت دولة انكلتره في هذه الازمان مشاق كثيرة ونفقات باهظة حتى تمكنت من فتح دهلي فدخلتها قهرًا في ٢٠ (سبتمبر) فأسروا حاكمها مع حاشيتهِ وابنائهِ وقتلوهم جميعاً ودخلت بقية العساكر بلدة (لكناهو) ففتحوها . وخلاصة المقال ان الثورات امتدت الى اوائل الصيف من سنة (١٨٥٨) الميلادية ثم ارتفعت حجب الهياج وانتهت اخيرًا بواسطة (كامبل) القائد العامّ لعساكر انكلتره وصفا جو الهند من غبار الثورات رويدًا رويدًا وعادت الامنية وانقرضت من هذا التاريخ قوانين « كمباني هند » وعينوا لها حاكماً مستقلاً وامّحت عنها الرسوم المهيجة للفتن . ولقّب (كامبل) السردار الموما اليهِ بلقب (لورد كليد) في ازاء خدماتهِ الفائقة واتخذت مملكة الهند بعد ذلك وزيرًا في عداد وزراء انكلتره يقيم في عاصمتها لوندرة ليبحث عن شؤونها النافعة ويدفع مضارّها

وفي اوقات امتداد الثورة تراكمت سحب الخوف وتصادمت مع اعمار اناس

كثيرين من اناث وذكور وشبان وشيوخ فسقوا كؤوس المنايا مدهنةً وبقيت من بقاياهم جماعة من النساء والعجزة يتقلبون على تراب الذل والهوان . وكانت بواخر الدولة الانكليزية تحمل هؤلاء التعساء الى انكلترة من جملتهم هذه التعيسة الاسيفة الخانم الانكليزية المسماة (مسترس هورتسنت) التي قصت قصتها في اوتل (فندق) بباريس للدكتور (فلكس مينارد) الطبيب مداويها ومعالج اسقامها . ولما كانت قصتها تحتوي عبرًا عجيبة ترجمناها ليعتبر الرافلون في حال الامنية بها ولتنبه ارباب الثروة واليسار . واصحاب النعمة والاعتبار . ويحترزوا من تبدل الحال . والابتلاء بالادبار بعد الاقبال وليؤيدوا وظائف الشكر ويسألوا الله تعالى ان يديم عليهم ظلال رأفة السلاطين العظام . فانهم العروة الوثقى في نيل المرام . ولهذه الثورة سوانحٌ منفصلة ضربنا عن ذكرها صفحًا اذ لا طائل تحتها وانما اوردنا هذه العجالة تمهيدًا للمقدمة ولنشرع الآن في المقصود

مقدمة

﴿ منقولة من قول الدكتور فلكس مينارد الطبيب ﴾

قال الدكتور المشار اليهِ كنت في فندق بباريس على حسب عادة المجتازين وكانت امرأةٌ انكليزية اسمها مسترس هورتسنت اتخذت في هذا الفندق منزلاً لها وهي من النساء اللاتي ابتلين بالخطوب عند ثورة الهند الشهيرة وامتلاء النئة الباغية فيها وكانت سفن انكلترة تحمل اولئك التعيسات في كل شهر مرتين الى مستشفى عاصمتها لاصلاح احوالهنّ اما هذه الامرأة فقد كانت لها حاشية واقوام بباريس فلما جاءت لوندرة اقامت بها برهة ثم رجعت الى باريس ترجو تلطفهم وتفقدهم فاعتراها مرض في هذا المقام واتفق اني توليت معالجتها

ونحن الاطباء لنا غيةٌ في تجسس الامور المؤدية الى الامراض والداعية لها نبحث عنها ادقّ بحثٍ ولا غرو فان الفحص والتنقيب من شرائط حرفتنا فسألتها عن علة انحراف مزاجها وابتداء وقوع المرض فشرحت لي من قصتها الموجعة

ما تقطع لها قلبي من الحزن والاسف ووضح عندي ان اكثر مرضها من عارضة البلايا والغصص التي تجرّعتها . ومرضها الجسماني لا يقاس بامراضها الروحانية . وحصل لي من تقريراتها انها كانت متمولة في الهند غريقة في بحور النعم ورفاه الحال . اما بعلها فكان رجلاً رقيق الجانب سهل الخلق صافي السريرة تعلوهُ التوّدة والوقار وكانت ابنتها زاهية في جلباب الشباب ذات قوام مياد وجمال فائق . وكان ابنها طفلاً مليحًا حسن الشكل لطيف المخايل وكان صهرها شهماً مقدامًا وديعًا متصفًا بالصفات الحسنة والمزايا السامية يقتل في هذه الغائلة اولاً زوجها وصهرها ثم بنتها وطفلها ويعتريها الفقر المدقع

ولما سمعت بعض قصتها تحقق عندي بالقواعد الطبيعية ان هذا الداء الذي اعتراها داء عضال لان المرض الجسماني وان كان شديدًا يمكن ان يعالجهُ الطبيب الماهر بالادوية النافعة اما الامراض النفسانية فيعجز حذاق الاطباء عن معالجتها الاَّ من استطاع خرق العادة وهو امر عسير . ولغرابة ماجرى لها استأذنتها بترجمة قصتها للافرنسية ليكون ذلك تذكرة تاريخية لها فاجازتني وبادرت الى الترجمة وهاك تفصيلها

الفصل الاول

امارات الهياج

في اليوم الحادي عشر من شهر (مايو) سنة الف وثمانمائة وسبع وخمسين من الميلاد الموافقة سنة الف ومائتين وخمس وسبعين من الهجرة كانت شموس سعادتنا مشرقة وكنا في ظلالها ناعمين نرفل في ذيول الرفاهة لا تنفك نضارة الاوقات خادمة لنا والعز سادلاً رواقهُ علينا وكانت ثروتنا تزداد يومًا فيومًا وبعد ان يئستُ منذ مدة ست عشرة سنة من الاتيان بولد منَّ الله جل وعلا عليَّ بهِ وجعلني قرينة التشكر على نعمائهِ . كأنهُ تبارك وتعالى نظر نظرة رحمة الى احوالي الآتية ومصائبي المستقبلة فوهب لي هذه الموهبة العظمى لتكون واسطة لاشتغالي ايام انفرادي وابتلائي

وقد كنا عازمين على زفاف (آلن) بنتي وارسالها الى دار زوجها وكان زوجي مصمماً على ارجاع عائلتنا من الهند الى انكلترة وقد اوعز اليَّ انهُ يريد بيع مزرعتنا التي تنبت النيل (النيل نوع من الصبغ تصبغ بهِ الملابس وهو اعظم محصول الهند واغلاه قيمة وهو معروف كالبقم) بيعًا قطعياً او ايجارها لأحد الزراع فيستريح من اعباء القيام بعمارتها وجمع محصولها وانهُ عازم على الرجوع الى الوطن . ولاتمام ذلك القصد خابر الدلالين الذين لهم خبرة واطلاع بقيمة المزرعة وما زالت المذاكرة جارية في (مدراس) و (بومباي) وكانت الاجوبة التي تصل الينا منهم مشتملة على معذرة في حصول املنا من بيع المزرعة منذرة في خنامها بالحوادث والانقلابات التي ستحدث في قارة اوربا عمومًا وفي الهند خصوصًا او هي قريبة الظهور

ففي جملة كتبهم الينا كتاب فحواه « ان العساكر الهندية في بنكالة وسائر النقط اتفقوا على الثورة والهياج » ولهذه الثورة اسباب منها ان رصاصات البنادق التي كانت تحمل الى الهند كان ارباب المعامل يدهنونها بدهن خاص بناء على الوضع الجديد الذي اخترعوه . فتصوَّر الهنود من المسلمين وعبدة الاصنام انها ملوثة بدهن الخنزير او شحم البقر فتناقلت الالسنة ذلك الخبر فقامت على تصديقهِ كل الشعوب والاجيال لان احد هذين الحيوانين محرم دينًا والآخر داعٍ للاجتناب والنفرة . وكان العساكر قد اجبرتهم قوادهم على استخدام تلك الرصاصات فاستفتوا براهمتهم وعلماءهم في جواز استعمالها فمنعوهم منعًا اكيدًا فاصبح ذلك سببًا للهياج وتصور الهنود ان ذلك مبنيٌّ على اهانة دينية وان انكلترا تريد خرق قواعدهم واديانهم

وقرأنا في كتاب آخر خبر طغيان الفوج (الآلاي) التاسع عشر من مشاة العساكر المأمورين بحراسة بلدة (رامبور) وحدودها وانهم اعلنوا العصيان على انكلترة واحرقوا تلغرافخانة (بادكبور) وشرعوا بالفتك والنهب في قراها وضواحيها واغاروا على الانكليز يخربون دورهم ويحرقون زروعهم . ومن الحوادث التي مهدت سبيل الثورة وكانت مصدرًا لها ان بعض الاهالي كانوا يتلبسون بلباس البراهمة والدراويش ويتجولون في اطراف المدن الهندية يدّدون بالافرنجيين ساعين في ايقاد نار الطغيان بانواع الدسائس والمكايد ويقسمون للاهالي رُغمًا على هيئة خاصةٍ تشبهُ النيلوفر الطريّ بحيث اذا رأتها الاهالي اثرت فيهم فتظهر من رؤيتها علامات البغضاء

والصغينة على وجوههم وجباههم

وكانت الافواج الهندية عند حضورهم في ساحة الاستعراض للحركات النظامية تصل الى يد رجل منهم واحدةٌ من النيلوفر الحقيقي الطبيعي او الرغيف المشابه لها بواسطةٍ خفية لا يدري الفطن المتدرّب من اي شخص حصل وفي اي ساعة وصل فينظر هذا العسكري ويتأنق فيهِ متأملاً ثم يأخذهُ رفيقهُ الذي بجانبهِ حتى تتناقلهُ افراد العساكر واحداً بعد واحد ويدور الرغيف من رديفٍ الى رديف فيحدث تغير كلي في الوانهم وتبدو من ملامحهم امارات العداوة

ان العيون لتبدي في نواظرها * مافي القلوب من البغضاء والاحن

اما اهل تلك العلامة الوخيمة المترتبة على رؤية النيلوفر فاننا لم نقف على حقيقتهِ الى الآن مع اقامتنا بين قبائل الهند وشعوبها . وكانت الاخبار الموحشة المتواترة تنذرنا وتجعلنا في خوف وتوحش عميق تحكم بسفرنا من دهلي الى اوطاننا بالعجلة التامة وان لا نتوقف في الهند اكثر من ثمانية او تسعة ايام . وكنا في بعض محافلنا نتجاذب اهداب المشاورة في الحوادث الداخلية فنتكلم عن السلطة الكاملة التي حصلت لانكلتره في هذه الاوقات في الهند وعن الضعف البالغ منتهاه والطاعة التي لازمت الهنود فانهم لا يقدرون على ارتكاب اقل خلاف . وكنا نحمل التفاصيل الواردة الينا من الدلالين على الاغراق . وآخر حدسٍ خطر بقلبي انهم يريدون ايحاشنا وتهويلنا بتلك الخرافات والاباطيل لترك ضياعنا وعقارنا لهم بثمن بخس فيتمكنوا من مقاصدهم الفاسدة . والذي اكد عقيدتي هذه ان صهري (ويليام هود) الحائز درجة النيابة في النوج (الفرقة او الآلاى) المهندس الانكليزي كان من المعترفين بمخرقة الدلالين على ان هذا الشاب الشديد الشكيمة كان يلاقينا في مزرعتنا التي بخارج دهلى اغلب الليالي ويتكلم على دقائق سياسة انكلتره واتقان قوانينها العسكرية ثم يبرهن على تكذيب الاخبار المنقولة فيهدأ روعنا وتطمئن خواطرنا

وكان يقول في غضون كلامهِ اتنق في كثير من الحروب ان اربعة من انفار الانكليز حكموا على اربعة فيالق هندية وقادوهم كما يقود الراعي قطيع الغنم اذا شاء اوردها المرعى واذا شاء اصدرها

الفصل الثاني

توارد الخواطر

في بعض الليالي التي كان يتخلف فيها ويليام عن القدوم الينا لقيامهِ على حراسة قلعة (سينقور) كانت حالتنا يرثى لها من الهواجس والمخاوف وكانت تتجسم عندي الصور الخيالية في هيآت مهيبة وقوالب مختلفة وتترائى لي اشكال متنوعة في اليقظة والنوم وكأن ملهماً غيبياً يلهمني باختلال امرنا وان نبيع املاكنا ونخرج من الهند لاني كنت اتوسم في امورنا علائم الادبار وانهُ قد آذنت شموس اقبالنا بالافول وكنت طوراً اكلف زوجي ان يبيع متملكاتهِ بقيمة زهيدة او يتركها سدًى ويقنع بالنقود الحاضرة لنركب باخرة ونفرّ الى لوندره . فيا لله ولهذه الاحوال والاهوال

اما زوجي فكان يتعجب من وحشتي وينسبني الى الجنون ويقول « اني لا ابرح مكاني هذا حتى اقتطف ثمار مزرعتي ويفجح املي وتربح تجارتي » ولا انسب زوجي الى الشره في احتشاد الاموال وطول الامل فان مزرعتنا كانت جسيمة المنافع عامرة تنفعنا بمبالغ خطيرة في كل سنة لا نظير لها في ضواحي (كلكوتا واله اباد) معدودة في الدرجة الاولى وقد قوّمت بقيمة مائة وثلثة وعشرين الف تومان وكانت مطمحاً لانظار الملاّكين . وعقيدة زوجي اننا لو بقينا في الهند ثلاث سنين أُخرى ازدادت ثروتنا الحاضرة ازدياداً كبيراً وبلغت مائتي الف تومان

ومن اللوازم الضرورية القانونية ان نهب لبنتنا آلن مالاً كافياً من الجهاز عند ارسالها الى دار زوجها والقصد الوحيد من المكث في الهند تحصيل مال يعادل عشرين الف ليرة وهذا هو المبلغ الذي علينا تأديتهُ لآلن عند تجهيزها . وطالما كنت اسعى في تنبيه زوجي الى احقاد متوقدة في القلوب سترها الرماد الظاهري وان الرعايا الذين يسكنون اطراف مزرعتنا يعادوننا جدًّا ويترصدون وقوع حادثة قريبة ليهدموا بيتنا ويذهبوا بطارفنا وتليدنا لكنهُ ما تنبه بملاحظاتي ومطالعاتي ابدًا كأني اضرب في حديد بارد وما الفائدة اذا حلّ القضا واتسع الخرق . وكنا نسلك طريق الحفاوة في المعاملة مع الرعايا ونراعيهم اكثر من الزرّاع في اسعاف تمنياتهم

وهم يبدون لنا ظاهرًا حسنًا ولكنهم لا ينصرفون عن عداوتهم الراسخة في قلوبهم وبغضهم القديم

وفي ليلة من هذه الليالي جاءنا واحدٌ من معارف الدلالين واتانا بمبلغ جسيم لشراء المزرعة وقطع معاملتها المعهودة فشجع زوجي بانهُ كبرًا واعرض عن بيعها لتحقيق آمالهِ بجمع الثروة الخيالية فاهمل امر بيعها واذن بالذهاب الى انكلترا. فما برحت تجارتهُ حتى بلغنا ما بلغ واحاطت بنا النوائب من كل جانب ودارت علينا الدوائر فتركني كما ترى وحيدة فريدة يرثي لي الشامت ويبكي لي العدوّ وطرحني في ورطة التعاسة لا اقدر على شيء . بعد ما كنت غريقة في بحور النعمة واليسار . قُتل زوجي وصهري وبنتي وابني ونفد زادي وباد قومي وخلت يدي وتحطمت اركان حياتي واشتعلت مصابيح المصاعب في رأسي . آه الآن قد ندمتُ حيث لا تنفع ندامتي . ان الالهام الغيبي طالما نصحني وانهى اليَّ اخبار ابتلائي لكنني ما اتعظت حتى أصابني ما اصاب . وفي اليوم الذي اعرض زوجي فيهِ عن بيع المزرعة خرجت معهُ وبنتي وصهري وابني « ويل » للتنزه على شاطئ نهر جمنا وكنا نتذاكر في مساعٍ اراد اجراءها بعض اعاظم القسوس لتحويل الهنود الى النصرانية فيجمع القلوب ويوحد النيات وان هذا الشخص تفرد برأيهِ الضعيف ويعتقد انهُ لابد من اجبار الهنود على تغيير المسالك واتخاذ هذه الطريقة كرهوها او احبوها . واخذت مكالمتنا هذه طرفًا من التحقيق الدقيق وتشعبت بنا سبل الكلام في سرد المضارّ المنطبقة على هذا القصد والمنافع المشتملة عليهِ اذا تمَّ فوقعت بين آراء اربعة

وانما قلت بين آراء اربعة واخرجت ابني من انخراط هذا السلك لنقصان شعوره وعدم استحقاقهِ الدخول في حوزة المكالمة . كنا مشتغلين بالبحث والجدال و (ويل) يلعب تارة يعدو سريعًا ويسابقنا في المشي واخرى يرجع مهرولاً آخذًا بيدي او بيد اختهِ حتى وصلنا والحالة هذه الى طريق ضيق قد تغيلت الاشجار فيهِ والتفت فاعوجَّ الطريق متمايلاً ورأينا ثمت درويشًا هنديًا قد توسد في عرض الطريق وسدَّ المسلك على المارَّة وكان ويل كما قلت امامنا مشتغلاً باللهو واللعب باقتفاء طفوليتهِ فما وصل ذلك المقام الاَّ ورجع القهقرى مرتاعًا صائحًا وكانت آلن مع ويليام يتقدماننا في المشي وانا مع زوجي نمشي على عشر خطوات منهما فلما عاين

ويليام وحشة ويل وفزعه من مشاهدة الدرويش دنا هو من الدرويش وهدّده قائلاً له « قم وافتح الطريق » فما تحرك الدرويش ابدًا فاستشاط ويليام وقتئذٍ غضبًا وكان معهُ اربعة عساكر فقال لهم (خذوا هذا الكلب والقوه في النهر) فتقدموا بجموعهم واخذوا برجلي الدرويش ويديهِ وحملوهُ ليطرحوهُ في (نهر جمنا) عملاً بامر رئيسهم فاسرعتُ لامنعهم فادركتهم قبل فوات الفرصة ومنعتهم من القائهِ في النهر ثم اخرجت (روبية) من جيبي واعطيتها لويل فذهب بها الى الدرويش من غير وحشة ووضعها في محاذاة فمهِ وهو نائمٌ ثم رجع

فأخذ الدرويش الرّوبية وتحرك عن مقامهِ بمزيد الوقار وفتح الطريق . واما ويليام وآلن فلما جاوزا ذلك الموضع والدرويش مضطجع بجنبهِ نظر اليهما نظرة رجاء ويقين وقال « ستفتح طرق الهند وتخرج من ضيقها الحالي وستطهر مسالكها الواسعة من رجس وجودكم » ولما مرّ زوجي نظر اليهِ محملقًا وقال (سيغلب عباد الله واولو الحق على الكفرة الفجرة) ولما دنوت منهُ مع طفلي واجه ويل بملامح التلهف والتحسر وقال (اديت فديتك ايها الطفل المحبوب لكنها لا تدفع القضاء المحتوم)

فأثر تقرير الدرويش في قلبي تأثيرًا عظيماً ولما رجعنا نقلت ما سمعتهُ الى زوجي وويليام يسمع فقال وهو يضحك يدّعي الدراويش كثيرًا من امثال تلك الخزعبلات والادعاآت الباطلة . وشنع قولهُ بقصة من قصص اولئك الخراصين المحمولة على الاغراق واكاذيبهم البعيدة عن التصديق فتبعتهُ في الضحك وصدقت قولهُ ان لا اغترّ بترهات الدراويش لكن ازدادت اهوالي واوهامي السابقة بعد ذلك

الفصل الثالث

الضيافة

وفي ليلة من ليالي هذا الاسبوع كان زوجي مدعوًّا في بيت واحد من ضباط النظام فذهب تلك الليلة الى الضيافة في الساعة المعينة وتأخر عن الرجوع في الوقت المعين ومضت ثلث ساعات من نصف الليل ولم يعد فاستوحشت كثيرًا

وكان خوفي يومئذٍ من طائفة (ثوك) الذين يختفون في المكامن ليلاً ويأخذون من يجدونهم مفردين ويخنقونهم يحسبون ذلك فرضًا دينياً يتوقعون عليهِ للثواب. وكان مجتمعهم عند جسر (ميرتهه) ولا بد لبعلي من ان يجتاز ذلك الجسر في رجوعهِ وما زلت اعاني الوساوس والاوهام حتى صممت على ارسال بعض خدامنا المسلحين ليكونوا في خفارتهِ وفيما انا على هذا العزم واذا بخفق النعال وصهيل الخيل طرقا باب سمعي فلم تمض برهة وجيزة الاَّ ووصل زوجي ومعهُ عشرة من فرسان الاهاند وضابط نظامي فلما رآني مسلوبة اللون باكية سألني عن العلة فاظهرت لهُ وحشتي من ابطائهِ فمازحني حتى انثنأت لوعة كربي وطالت مكالمتنا وعاد الفرسان بسرعة لضيق الوقت. وما جروا ريثما يأخذون انعامًا في ازاء خدمتهم هذه ولما تنبهت لهذا الامر امرت ناظر البيت ان يعطي لهم شيئًا برسم الانعام فقال انهم ذهبوا وما صبروا

فتطلعت عليهم من نافذة من نوافذ البيت فرأيتهم يقولون لرئيسهم عند الذهاب اما ترى عدم اعتناء هذا الشخص بنا. اما ترى ابتذال حقوقنا عند اهالي انكلتره. اما ترى كيف اطلقوا أيدي الجور والاستبداد في اموالنا وانفسنا بقلوب مطمئنة وخواطر مستكنة. الى كم نتجرع العسف ونذوق الهوان من ايدي الافرنجيين والى م نرسف في قيود الذل وحنام نسام العذاب. قد ازدادت صدماتنا الواردة من قبيلهم فسنكافيهم ونستأصل شأفتهم ان شاء الله

ومع ذلك فقد كانت مدينة دهلي وضواحيها ومزارعها مأمونة امور والزراعة محفوظة لايتخللها شيء من الخلل وكنا نجد الناس مشتغلين بمكاسبهم ومعاملاتهم بحيث لم يكن يشاهد في دهلي و(اكره) و (اكباباد) وسائر البلاد الواقعة بجانب الشارع الاعظم الاَّ الامن التام والسلم السائد والسكينة الشاملة على ان امارات الهياج كانت ظاهرة على جباه الفلاحين وفي ثنايا لحظاتهم. فما لبث الاهالي ان خرقوا حجاب التستر وابدوا شكاياتهم علانية وكانت العساكر الهندية بعد اتمام حركاتهم النظامية عند خروجهم الى اطراف دهلي يتجسسون البيوت والمساكن المتعلقة بالانكليز كأنهم ينشدون ضالتهم. وبعد مضي ايام قلائل جاءتنا انباء الثورة تباعًا من (لوكوف) ان الهنود يتأهبون للثورة ومن (اوده) ان طائفة (ثوك) المتقدم

ذكرها خرجوا من الزوايا والمكامن غير هائبين البوليس والحراس واشتغلوا بالفتك والخنق الى غير ذلك من الفظائع الشنيعة وان قبيلتي (كاندو و بنوا) تسرقان الاطفال وتعدمانها بصدمات مختلفة وان الهرج يتوسع شيئًا فشيئًا و بلغنا اخيرًا ان هذه الطائفة سرقت في ناحية (جيبود) عدة اطفال من اشرف العائلات الانكليزية وذبحتها كما تذبح الجزر وان تجري احتفالات عظيمة وتظاهرات جسيمة في الجوامع والبيع وتنعقد مجالس غاصة بصنوف القبائل في الكنائس والمساجد يدعون الله تعالى و يبتهلون اليه ان يبيد حكومة انكلترا و يتلون الخطب المهيجة في اضمحلالها واستقرار سلطنة الهند في العائلة الكوركانية

وكان من اعتقاد البراهمة ان دولة الانكليز لا تتمكن من اخضاع الهند والتغلب عليها اكثر من مائة سنة فعلى ذلك يجب ان تنفصم عرى استيلائها في هذه الاوقات لانها قد استولت على الهند سنة (١٧٥٧) لغاية الآن وهي سنة (١٨٥٧) وقد تم القرن المعهود و بلغ عدد سني تسلطهم المائة وستبدل صولتها بالضعف واستيلائها بالاستئصال ومع تواتر الاخبار الموحشة كانت اكناف دهلى غارقة في بحور الاطمئنان

ختمنا شهر ابريل بسعادة وهناء وشرعنا باقامة وليمة عرس آلن وويليام للقيام بما يتمناه قلبي لا بل كما تتمنى كل ام رؤوفة حنونة لبنتها وفلذة كبدها وتوجه املي للحصول على ساعة زواجهما وانا لا اترك دقيقة على حسب ما تكنهُ المحبة القلبية من الاحساسات العائلية فجعلنا اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ميعادًا لابتداء العرس ودعونا معارف الخواتين واكابر الفتيات وعقائل المخدرات وعظماء القواد والضباط العسكرية وفرقنا بطاقات الدعوة واخذنا في التأهبات اللائقة

آه وا اسفي على خسران امالي وخيبة آماني وانكسار قلبي الذي ملأهُ الزمان املاً وما بسط لهُ ساعدًا ولا فتح لهُ بابًا

الفصل الرابع

﴿ اقامة العرس ﴾

جاء اليوم المعين واجتمعت المدعوات والخواتين واحتفل الرجال ومدت الولائم واعدت المشروبات واخذنا في دواعي السرور والتنزه مع اترابها ربات الحسن والدلال وويليام آخذ بمجامع الصحبة مع اقرانهِ يطارحهم الاحاديث والانغام الموسيقية تجدد نشاط قلوبنا بضربها المطرب

وما زلنا على هذه الحال والقلوب فرحة والخواطر منبسطة واذا بحادث بغتي نغص عيشنا الرغيد وهي ان الدهباشي (الاونباشي) سيلي في فوج ويليام فتح باب الغرفة التي كنا فيها وهي حافلة بالرجال والنساء فدخلها والبغتة ظاهرة على وجههِ حتى وقف امام ويليام وناجاه اكثر من نصف ساعة . فمكالمتهُ السرية مع عدم استئذاننا ودخولهُ في مجمعنا بهذه الجسارة فضلاً عن سحنتهِ الموحشة المصفرة وصوتهِ المتزلزل وحديثهِ الطويل مع رئيسهِ وارتعاش يده اثناء الكلام وتلجلج لسانهِ اوقعنا كل ذلك في دهشة وحال بيننا وبين الطعام ونجمهرنا حول سيلي وويليام ونحن نستعلمها الخبر وهما لا يعبآن بنا . ولما تمت اجوبتهُ اذن لهُ بالذهاب وقال جهاراً بصوت عال سمعهُ كل الاضياف والخدام « اوعز الى فرقتي العسكرية بان تكون مسلحة تتأهب للحركة ريثما أصل »

وكنا كلما نلح عليهِ في كشف المسئلة ونستخبره عن سبب مجيء سيلي ولما أمر باحضار فرقتهِ والى اين يذهب بها زاد اصراراً على اخفاء الامر وتقليل الجواب وظل ساكتاً باهتاً لا يفوه ببنت شفة . فلما تجاوز الحاحنا حد الطاقة اجابنا بهذه العجالة « امرني الجنرال كراو ان اعجل بايصال فرقتي اليهِ بعد ساعة واحدة » هذا ما اجابنا بهِ ويليام تسكيناً لوحشتنا وقلقنا وهل يخفى الامر وقد ظهرت على جبين ويليام عدول الاضطراب يشاهد فيها علامات يثبت للرائي انهُ يداهننا وان ما يظهرهُ مخالف لما يضمرهُ في قلبهِ ورب سكوت ابلغ من بيان

فاكبت آلن على ويليام بجوامعها وقتئذٍ تلتمس منهُ بيان الحقيقة وايضاح العلة

الداعية لذهابهِ وهو مع ذلك لا يتكلم ابداً فما مضت على تلك الحالة هنيهة واذا بواحد من ملازمينا دخل الغرفة وقال لو يليام « الفرس حاضر والفرقة مستعدة تنتظر وصولكم » ولما قرع هذا الخبر باب اذنهِ قام معجلاً وافلت يده من يد عروسهِ آلن وخرج من غير ان يودع حضار المجلس او يسليهم بكلام . ثم تسنم صهوة جواده وقصد سمت دهلي وما كانت عجلتهُ هذه الاَّ للتملص من ايدي النسوان والحاحهنَّ في كشف السرّ فما بعد عنا بقدر غلوة الاَّ ورجع القهقري عن طريق البساتين فوقف خلف الجدران وربط فرسهُ بشجرة وجاء مختفياً بحجرة البيت واشار الى البواب وهو من معتمدي خدامنا ان يحضر لديهِ زوجي باي تدبير يعلمهُ ليوعز اليهِ بعض المطالب المخفية التي لابد من اعلامها

ذهب ويليام ونحن حيارى والضيوف مجبورون لتناول قليل من الغذاء فجلسنا على المائدة واعددنا النفوس للاكل ولكن اين الاشتهاء . فلم يكن كرجع النفس او لمع القبس حتى دخل بوابنا وليس في وجههِ شيءٌ من مظاهر الاضطراب فتقرب من زوجي ووقف قبالتهُ وناجاه قليلاً فقام زوجي من غير تأمل وخرج واشتغلنا بالغذاء وكان على المائدة رجل من ضباط النظام اراد تطييب نفوسنا بشيءٍ من اطلاعاتهِ وايناسنا بملاطفات تجلو صدأ قلوبنا فقال « لا اهمية لذهاب ويليام وقد اوحشكم من غير سبب واملي وطيد بانهُ سيعود ومن المعلوم ان كل قائد كبير يريد اظهار قدرتهِ في الامور العسكرية وتنفيذ اوامره في حق ضباطهِ واجزائهِ واني على يقين ان ويليام حضر مجلس عرسهِ بدون اجازة من الجنرال كراوفارد باحضاره تنبيههُ على هذا وقد جرت على ذلك عادات اعاظم القواد وتعودوها في اقامة ناموسهم السياسي »

فما طابت نفوسنا على هاتهِ الصحبة المشوبة بالملاحظات الزمانية وصرنا نتعلل بالطعام والوحشة باقية والاوهام الباطلة تتقاطر على مخيلتي كتقاطر الامطار . مضت خمس دقائق وتجاوزت العشر وضربت الساعة الربع والنصف وما رجع زوجي ليت شعري اين توقف . وماذا حدث يا ترى ؟ فتحفزت للقيام عن المائدة مرارًا لابحث عنهُ فمنعتني ملاحظة الاضياف وجعلت امامي سدًّا سديداً مخافة ان يقعوا في وحشة اكثر من الاول فجلست وانا انقلب على جمر الانتظار ولكن لم يطل الحال

حتى دخل زوجي وهو مرتعش اليد متغير اللون فقعد فوق كرسيهِ ونحن سكوت كان على رؤسنا الطير فاشار اليَّ ان اذهبي بالخواتين الى الغرفة الاخرى ولكنني لم افهم هذه الاشارة الخفية لشدة الحيرة وغلبة الدهشة فظللتُ باهتة واتبعتني النسوان وجلسن على كراسيهن المعدة هناك فغلب على محفلنا سكوت عميق لايسمع فيهِ الاَّ طنين الذباب ولا يرى فيهِ الاَّ البهوت والسكوت

ولما رأى زوجي اصرارهن على الجلوس اشار الى الخدمة بالخروج فما قدرت وقتئذٍ على تمالك نفسي فقمت من مجلسي واخذت بيدهِ وقلت « لقد تقطعت اكبادنا اليوم وكادت قلوبنا تنفطر بالله عليك اعلمنا بالواقعة هل حدثت مضار تجارية او خسارة مالية لشركائك المقيمين في كلكوتا ولندره ام حدثت حادثة اخرى لاينتق رتقها فاشرح لنا بعض ما اطلعت عليهِ لتطمئن قلوبنا » فاجابني يا حبذا لو وصلني خبر فناء ثروتي ومكانتي باسرها ثم توجه الى النسوان وقال بنهاية الادب « اينها الكريمات الخيرات اني اتمنى خروجكن من الغرفة برهة قليلة فان لي مطالب مخصوصة مع الرجال اريد الاختلاء بهم للخوض فيها وحضوركن سبب لاختلال الحواس وارتباك الاراء على انكن ستطلعن على السرّ في عجالة الحال فاخرجن من غير تأخير »

فازدادت وحشتنا ولحقنا اضطراب عظيم من سماع هذا الكلام ولم يؤثر سؤال زوجي فيهن وبقين على كراسيهن كأنهن اخشاب مسندة او صور منقوشة على الجدران وتحفزتُ للقيام فما امكنني ولما شاهد زوجي هول هذا المطلع قال « اني اردت بقولي صلاحًا لحالكنَّ وقد اديت ما عندي من النصيحة ولما احجمتن عن اطاعتي فاليكن البيان : ان نيران العصيان التي شبت اولاً في ميرتهة ما لبثت ان توقدت واتسعت حتى امتدت الى سائر الانحاء وذلك ان العساكر المقيمين في ميرتهة اشرعوا عوامل الطغيان وقتلوا ضباطهم وقوادهم كافة واستولوا على الانكنيز واصطلت بينهم نيران الحرب فاطلقوا في ميادين الحتوف . اعنة صوارم السيوف . وقد تحركوا الآن الى دهلي واراد الجنرال كراو مقابلتهم وارسل الى ويليام ليحضر جنده لملاقاة العصاة وقد صرح لي ويليام بهذا على حدة لئلاَّ يتوحش الحاضرون وينغص عيشهم لاسيما عروسهُ الآن وذلك لصفاء سريرتهِ ودماثة اخلاقهِ فانهُ قصد دهلي على مرأى منكم ثم رجع اليَّ واسرَّ اليَّ ما بينتهُ لكم »

الفصل الخامس

﴿ انكشاف السر ﴾

فلما برح الخفاء وانكشف اللثام عن وجه الحقيقة بقيت الابدان جامدة واصفرت الوجوه وجفت الافواه فمضت والحالة هذه بضع دقائق ثم انتبهنا واجتمعنا رجالاً ونساءً حول زوجي وجعلنا كرسيه مركزاً لدائرتنا وشرعنا نسأله عن العلة الداعية للثورة . اما آلن بنتي فقد كانت مقبلة الى الجدار وقد انحدرت لآلئ دموعها على وجناتها باسطة يديها نحو السماء بكل خشوع وابتهال تتضرع الى الله ان يحفظ زوجها من كل شر وسوء فقصدتُ تسليتها بكلام رقيق لتسكين روعها واذا بفتاتين من رصفائها اللاتين حضرتا في هذا المجلس تعلقتا بذيلي وهما تبكيان باعلى صوتهما وطنفت الاضياف يهرجون وارتفعت الضوضاء من دارنا واختلط البعض بالبعض . والرجال الذين كان من حقوقهم ان يجتمعوا هناك للنظر في الخلاص من هذه الداهية الدهماء وقعوا في هرج عظيم يعجز عن وصفهِ نطاق بياني لايعبأُون بزوجاتهم واخواتهم وبناتهم فيالها من بائقة اذهلت الحليلة عن الحليل . ولسوء بختنا ان دارنا هذه واقعة في شارع كبير ينتهي الى ميرتهة والطغاة اذا ارادوا الدخول في دهلي لابد من ان يعبروا هذا الطريق ونحن سنكون عرضة لسهام البلايا قبل الآخرين . وكان (كران) قسيسنا مشتغلاً وقتئذٍ بالصلاة بجاش ثابت من غير ان يندهش من قلق ذلك اليوم العصيب ولما فرغ من تقديم الفرائض المذهبية امر النساء بالخروج من الغرفة والرجال بالاجتماع للمشاورة فتقدمت سائر النساء واتبعتني في الخروج فنزلنا قاعة في الدار ونحن نتهادى تهادي الولهان واذا بها قد اكتظت بعدد غفير من ملازمينا وخدامنا الهندبين . ولما رأوني ثارت بهم الحمية فاقبلوا اليَّ مظهرين سلامة نياتهم فينا والتمسوا منا تسليحهم بالآلات الحربية للمدافعة . فما اجبتهم بجواب ودعوت ابني ويل وبعد ما ضممتهُ الى صدري وقبلتهُ مراراً رفعتهُ فوق يدي في مشهد الجمع فما شاهدوا هذا العمل مني الاَّ ورقت قلوبهم واكدوا لي الوفاء

هل نرى يحبون ابني من صميم القلب ؟ ام هم يريدون بالتظاهر بتلك العناوين ان يفوزوا بمقاصدهم ويتسلحوا بادوات الحرب لوقاية نفوسهم . نعم انهم يحبون ابني من صميم قلوبهم لاننا كنا نتفقد لاجله احوال المصابين بالفقر ونكسي اليتامى والبتيمات ونراعي مرضى الهنود بارسال الدواء والغذاء ونتصدق بصدقات جسيمة ليكون هذا الطفل محفوظًا من الآفات . وكان قد اشتهر في قاطبة المزارع عند الفقراء وابناء السبيل بالجود والسخاء ولذلك دخلت محبتهُ في قلوبهم وهذا هو الدليل البيّن لحبهم اياه (ومن وجد الاحسان قيدًا نقيّد)

وخلاصة القول ان مظاهرات خدامنا تركتنا في اطمئنان وكنت اقول في نفسي ان ثورة العساكر لا تستلزم ثورة الرعايا وان طغيانهم امرٌ خاص لا يعمُّ الملة وهي راغبةٌ في حكومة انكليزة مائلة اليها وقد انقادت لاوامرها انقيادًا تامًا وستنطفئ نيران الهياج والشغب بمظاهرة الرعايا ومعاونتها وسنعود شرائط الامنية ورسوم الرفاه قريبًا في اقطار الهند واكنافها . تسليت بهاتهِ الاوهام ويا ليتها دامت لحظة اخرى لاني لما توسمت هذا الجمع الكثير في ساحة الدار واحدًا بعد واحدٍ ماوجدت فيهم رجلاً من رعايانا لانهم كانوا من ملازمينا وخدامنا الخصوصيين اما الرعايا فقد تباعدوا عنا وغلب على حدسي انهم اتفقوا حينئذٍ مع العصاة وعاهدوهم في باطن الامر وهم يريدون ان يتلافوا ما كابدوه في هذه السنين من الشقاء . وكان ظني معقولاً لانهُ مع الحفاوة والاشفاق اللذين كنا نبذلهما لهم وللهنود كافة كانوا لا يقتدرون على كظم غيظهم وكتمان نياتهم الفاسدة لتباين المشرب وتضارب المذهب . وطالما القى القبض عليهم بوليس الانكليز وحبسهم وطردهم غير انهم كانوا لا ينصرفون عن مجاهرتهم بالعدوان وتذمرهم مع تلك التهديدات . وكنا نرى نار الخصومة ملتهبة منذ اعوام واعصار من اول توطننا الهند واشتغالنا فيها بعمارة الاراضي والزراعة وقد عبرت الدهور وكرّت العصور وهم يئنون تحت احمال العصبية ينتظرون الفوز بآمالهم وابراز ما تكنهُ صدورهم وتضمره قلوبهم في حق الافرنجيين . فاشتغل وقتئذٍ ضرام جمر كنا نشاهد وميضهُ من خلل رماد العداوة والبغضاء

هذه حقيقة آرائي الاجمالية واذا كان الامر كذلك فقد وقعنا في مهاوي المهالك ولننتظر وقوع النكبات والغارات والقتل والنهب . فرسخت الخيالات في قلبي وكنت

متردّدةً في تصديق رأيي وتكذيبهِ واذا بزوجي خرج من الغرفة فانهالت في اثره الرجال من المجلس بعد مؤامراتٍ ومذاكراتٍ فعلا من خدامنا صوت « فلتحي انكلترة ولتهلك الفئة الباغية وزمرة العصاة شرفونا بالاسلحة لنكون معكم بهيئتنا الاجتماعية في دفع الثائرين وردعهم وانّ لكم في ذمتنا حقوق نعم تنعمنا بها منذ زمن طويل هي كالاطواق في اعناقنا يجب علينا القيام بايفاء شرائطها اقلها تداول البيض الصفاح . وبذل نفائس الارواح » ومع الرفاهية التامة الحاصلة للانكليز في الهند كانوا قد اعدوا في مزارعهم مخازن الاسلحة على سبيل الاحتياط لدفع المضارّ التي كانوا يخافونها من الوحوش والسباع السارحة في الآجام والغابات التي كثيرًا ما كانت تخرج منها وتجول في اطراف المزارع فتدخل البيوت احيانًا وتخطف الصبيان وكانت تلحق اضرارها بالاهالي وربما قتلنا عدةً منها على سبيل الاتفاق وكنا لا نقدر على النوم في اغلب الليالي من عواء الذئاب وصياح الثعالب وجلجلة السباع والنمور

ففتحنا باب ذلك المخزن حينئذٍ واخرجنا منهُ خمسين بندقية وثلثين مسدّسًا ووزعناها في الخدمة والضيوف ثم فتحنا صناديق الرصاص وقسمنا ما فيها فما مضت ساعة من ذهاب ويليام الاّ وقد تقلدوا اسلحتهم وتمنطقوا سيوفهم وتهيأوا للدفاع والمقاتلة تهيوءا تاماً بحيث لم ينقصنا شيء من الادوات النارية

الفصل السادس

﴿ الالتجاء الى الغرفة ﴾

اما نحن النساء الاسيفات فقد كنا هياكل الجبن والخوف فاجتمعنا في غرفة مرتفعةٍ خوفًا على انفسنا . واني لا انسى مدى عمري ذلك اليوم الذي كنا فيهِ في حالة يأس وانقطاع كلي وما ظنك بمجلس لا يرى فيهِ الاّ ذرف الدموع وخفقان القلوب . وكانت حسرتي تزداد حين تفكري في امر تزويج بنتي و ينقطع قلبي اسفًا لحالة هذه المسكينة . واسفي على خسران آمالي . باترى اية علة احدثت هذه التعاسة لي ولبنتي وبدّلت الافراح بالاتراح . وكنت انظر نظر التلهف الى رصفائي منيفنةً

ان هذا الاجتماع لن يسمح الدهر بمثلهِ مرة اخرى

ما اشبه حالنا بحال الاغنام التي يقدمها مسلمو الهند للقربان في عيد الاضحى من اعيادهم المليّة وكنا ننتظر اولئك القصابين ليدخلوا غرفتنا ويقتلونا وكانت جدران الغرفة التي التجأنا اليها تكاد تشتعل من حمارة القيظ وغلت مرارتنا في احشائنا كغلي الحميم وضاقت نفوسنا من تصادم هذا الهواء المحتبس وكدنا نهلك في معمعان الحرّ قبل وصول العدوّ . وكنت ارى بعض الخواتين المحترمات قد اشرفن على الهلاك ترتعد فرائصهنّ من الدهشة والبعض الآخر جاثيات على ركبهنّ ناظرات في مستقبل الامور والبعض الآخر قد استولت عليهنّ الكآبة وتناوبتهن طوارئ الخوف بحسبهنّ الجاهل سكارى وما هنّ بسكارى . ورأيت الفتيات نادباتٍ على انفسهنّ يصغين الى الضوضاء في الخارج غارقاتٍ في لجج الخيال وقد وجبت القلوب ونضبت العيون . واصفرّت الالوان وارتجت الاركان

فمن مقلة شرقت بالدموع ومن وجنة غرقت بالدماء

وسافرة من قناع الحياء ونابذة صبرها بالعراء

اما انا فكنت مع جماعة من النساء نتجلد نوهم اننا لا نكترث بمثل تلك القلاقل ونسلي بعضنا بعضاً مع الوحشة التي اخذت مأخذها منا وكنت ضامةً ابني ويل الى صدري ضماً عجيباً استعد لدفع الشر عنهُ واجد في نفسي قوة ضرغام قويّ يريد المحاماة عن شبلهِ واقول اذا دخل الاشرار غرفتنا وارادوا قتل ابني لآخذ بهاتين اليدين الضعيفتين حلقومهُ اللطيف فاخنقهُ خنقاً يريحهُ من الوقوع في ايدي تلك الجماعة

اما غرفتنا فكانت مطلة من الشرق على الطريق المؤدي من دهلي الى مرتهة وكان خطهُ الابيض ظاهراً وقد احدقت بهِ الاشجار من جانبيهِ وهو ممتد مع البصر الى ان ينقطع . ويطل من الغرب على ابراج قلعة سليم غوري وسائر استحكامات القلاع الواقعة هناك وعلى قمة الجسر الممدود فوق نهر الجمنا وقباب القصور الشاهقة وعمارات السلاطين الكوركانية ومآذن المساجد العالية . ومن الشمال والجنوب تطل على القرى والحدائق والترع والحقول والمروج والغياض النضرة والغابات المتكاثفة وغير ذلك من المناظر الطبيعية . والنساء اللواتي كنّ رابطات الجاش قويات القلوب اجتمعن للنظر من نوافذ الغرفة الى الشرق وكنت فيهنّ فانقضت

ساعتان وما شاهدنا في تلك الضواحي ما يخدش وجه الادب او يخل بالنظام او يخالف القانون غير اننا نرى البريد (البوسطة) سائرًا من دهلى الى ميرتهة بعجل وشاهدناه راجعًا من ذلك الخط ولما لاحظنا تردد البريد شرع وجيف قلوبنا بالانحطاط وتصوّرنا الطغاة انهزموا في ميرتهة والبريد لا يقطع الطريق بالعجلة الاّ لتبليغ البشارة واعلام القوّاد بها . لان السردار الانكليزي الذي في ميرتهة من شجعان الامراء الحربية واثار بسالتهِ وكفايتهِ مشهورةٌ فلا يتأتى للاشرار مقاومتهُ . وخيل لنا انهُ سينال الظفر . وكاننا بهِ قد اخمد نار الشغب . فما كان املنا هذا الاّ كشواظ تلألأ وانطفأ لاننا سمعنا اثناء هذه المذاكرة صوت الابواق والطبول من طرف نهر جمنا مع ان الريح كانت تهب على خلاف الجهة التي نحن فيها ولكن الصوت كان يقرب منا شيئًا فشيئًا ثم سمعنا ترنُّم الموسيقى العسكرية فما لبثت الحال على ذلك اكثر من ربع ساعةٍ واذا بفرقة عظيمة من مشاة العساكر وفرسانها يقودها الجنرال كراو قادمة لاستقبال العدوّ ومعها بطريتان من المدافع والانغام الموسيقية امامهم تجدد قوتهم وتهيج احساساتهم ولما بلغوا محاذاة بيتنا جددوا نشاطنا باصواتهم المرتفعة قائلين « فلتحي دولة انكلترة الفخيمة » وظلوا سائرين

ولما قرع هذا الكلام الوطني المهيج باب آذاننا نزلنا من الغرفة بمزيد السرور على خلاف اوامر ازواجنا واجتمعنا في ساحة الدار نسأل لهم الفوز والظفر وتفاءلنا بملاقاتهم وحسنت ظنوننا في حقهم وقلنا هؤلاء العساكر في حالتهم هذه وان كانوا ما وصلوا تجاه الاعداء وما شرعوا بالمقابلة والمقاتلة لكن علامات النجاح تلوح على صفحات راياتهم ووجنات الوانهم . ثم اجتمعت الخدمة والسادة والعبيد وهم اكثر من خمسين نفرًا وتراصوا امام الباب على طول الطريق بقلب جريء وخاطر قويٍّ ينتظرون خبر الغلبة والفتح وفيما نحن في ذلك الانتظار فاذا بغبار ساطع ملأ عرض الافق وهو يقصدنا ويقرب منا فلما انصرح الامر وسكت الرهج اسفر الغبار عن العساكر الانكليزية وهم تارةً يستقبلون الاشرار بهيئة مجتمعة ويدفعونهم باطلاق المدافع واخرى ينهزمون لغلبتهم

والفرَق التي تحت قيادة الجنرال كراو عبارة عن الفرقة ٣٨ والفرقة ٥٤ والفرقة ٧٤ من مشاة العساكر الهندية مع عدّة من الانكليز . ولما قابلت تلك العصابة الحافلة

العصاة ولاقتها في ميدان الحرب تركت الجنرال كراو وانضمت الى الوطنيين و بقي ذلك القائد مع نفر قليل من خواص ضباطهِ واشتبك القتال بينهُ و بينهم وحمي وطيس الحرب وما زال الجنرال يقاتلهم راجعًا الى دهلي بطور الكر والفرّ حتى اصبح على مقربة من دارنا وتوقف وكان هناك تلّ صغير اتخذهُ استحكامًا حربياً وشرع في مقاتلهم باطلاق المدافع فاستولت غيوم الدخان على خط تلك الحدود واسبلت على ارض النزال ستائر دموية . والشجاعة التي اظهرها الجنرال امام دارنا زادت الطين بلة وصارت علة لزحمتنا فاهاجت بنا دواعي المحنة لان الاشرار لما شاهدوا انسداد الطريق تحركوا نحو اليمين فهلك منهم جمع كثير من قنابل المدافع التي اطلقت متوالية من ذروة التل لكنهم تركوا قتلاهم صرعى وقصدوا دارنا فالتجأنا وقتئذٍ الى الغرفة التي كنا فيها وارتفعت الضوضاء وخشنت الاصوات وخرق دوي المدافع حجاب اذاننا ولا ضجيج النوائح واغبرت الدنيا في اعيننا . ما الذي يصيبنا يا ترى . هل نجد وسيلة للفرار من هذه الورطة . هل يجوز التوقف هناك وتكون نفوسنا عرضة للقتل ونواميسنا هدفًا لسهام الفتك والشهوات الباطلة . ام هل يجوز لنا الانتحار لنطمئن من الهلاك بالانتظار

وياحبذا لو كان ويليام حاضرًا هنا حيث قامت الحرب على ساق وقدم ليشاهد زوجتهُ الآن . ليت شعري ابن هو . لماذا تأخر عنا في هذا الوقت . اظنهُ مأمورًا بحراسة المهمات والذخائر الحربية ولو امكنهُ الخلاص لاستعار اجنحة للوصول الينا والاَّ فكيف يصبر ويتركنا في لجج الخطران هذا بعيد عن احساساتهِ . ولو فرضنا انهُ اعرض عنا فهلا يحضر للمحافظة على زوجتهِ في هذا اليوم المهول . اما الرجال فاستعدوا للنزال والبنادق على اكتافهم والمسدسات في ايديهم وتهيأوا للذب عن شرفهم واعراضهم فبينما نحن في حالتنا هذه رأينا رجلاً هندياً يخترق هضاب الثورة وبطاحها يلتمس دارنا فما زال يقتحم معاركها حتى دخل الدار وصاح اين صاحب الدار فاروه زوجي فاخرج من كمهِ رسالة صغيرة دفعها اليهِ ورجع ففتحناها فقرأنا فيها ما يأتي « مادامت الطرق منسدة بسبب مقاتلة الجنرال كراو مع الطغاة فاغتنموا الفرصة وادخلوا المدينة من طريق الجسر ومتى دخلتم اعلموني بمأمنكم اما انا فلا يتسنى لي المجيء اليكم الآن لقيامي على حراسة الذخائر الحربية في مخزن الاسلحة وهذا هو

السبب الذي اوجب انقطاعي عنكم . اخط هذه الاحرف وانا في غاية التشويش من جهاتكم . بلغوا العروس زوجتي العزيزة سلامي وقولوا لها تشددي وكوني ثابتة الجاش معتمدة على الله والملاقاة قريبة واملي ان تكون حالتنا جيدة ان شاء الله »

(ويليام هود)

فحلّ السرور في قلوبنا وقتياً وحصل لنا انشراح صدر واخذنا نفكر في تعاطي اسباب الخلاص وانتهاز الفرصة وقد رأينا التأخير شديد الخطر ورفع عندئذٍ كران القسيس رأسهُ الى السماء وبسط يديهِ الى الله متضرعاً ثم قال « ايها الاخوان وايتها الاخوات لا ملجأ لنا الا الله ولنلتجئ اليهِ وهو الذي يحفظنا في كنف حمايتهِ وحوزة حراستهِ تضرعوا اليهِ فانهُ لا خافض لما جمعهُ ولا مفرق لما جمعهُ » . فبسطت الايدي الى الله وخشعت الاصوات ولما اجبنا دعوة كران عزمنا على الفرار . اما زوجي فانفرد برأيهِ يريد التوقف مؤملاً ان الاشرار اذا بلغوا اسوار المدينة يجدون ابوابها مغلقة واسباب التحصن والدفاع موجودة فيتفرقون ايدي سبا ولا يمكثون في ميدان القتال وكان يقول لخدامنا المشمرين عن ساعد الدفاع ان الاشرار اذا قصدوا الدخول الى عمارتنا فلا تمنعوهم واتركوهم وداري هذه فاني اريد رعاية مجروحيهم . وحقيقة القول ان قول زوجي كان ناشئاً عن الانصاف الاّ ان تلك الانسانية لاتنفع الآن وقد اضطرمت نار الحرب وتطايرت شعلها . واخذ الجنرال امام دارنا استحكاماً حربياً وانتطحت فيهِ الكباش وازهقت الارواح . فصار ذلك التصادم والتهاجم سبباً بان الاشرار انحدروا الى دارنا انحدار السيل الهامي واحاطوا بها من كل الجهات وهم يصيحون ويقولون « الآن ننتقم من كفار الافرنج وفجار الانكليز الذين تسلطوا علينا ونقتلهم جميعاً »

الفصل السابع

﴿ الفرار والثورة ﴾

فالتفتنا حيث تبطحت سيول البلايا فاذا العلاج قد انحصر في الفرار ولكن

شاهدت زوجي متردداً فسقطت على رجليهِ والتمست منهُ قائلة « قد استفحل الخطب بالله عليك ان ترفق باولادك نجنا من هذه التهلكة التي ماجت فيها امواج المنايا ووافقني على الفرار فقد انشقت اكبادنا خوفاً » فاثرت كلماتي فيهِ واخذنا في تدارك الفرار واخذت انا مع بنتي شيئاً من النقود ومن الاحجار الكريمة ما كان اغلى قيمة واخف وزناً وخرجنا من البيت ووجدنا هنا ثلاثة افراس مسرجة فركبناها وتوجنا نحو دهلي بلا توانٍ ولا اهمال

قد يفكر قراء قصتي اذا وصلوا الى هنا في خدامنا المسلمين هل اتفقوا معنا في السفر ام لا فاقول اننا ما وجدنا فيهم من يوفي بعهده الا رجلاً وامرأةً وكان ما ابدوه لنا من الود والولاء عبارةً عن مكرٍ وخديعة وتملقٍ وصنيعة. اما الرجل فاسمهُ محمد الفيلبان (الفيلبان الذي يقوم بخدمة الفيل ويعلفهُ) اخرج الفيل من مربطهِ ووضع الهودج على ظهره وحمل عليهِ بعض الادوات واستوى فوقها وسار يتبع اثرنا . اما المرأة وهي مربية ابني ويل ارضعتهُ من الطفولية وربتهُ في حجرها فضمت ويل الى صدرها وتبعتنا اما زوجي وآلن فكانا امامي بركضان الفرس فاخذت ويل من الهندية واوصيتها بالجلوس في هودج الفيل واقعدتهُ على حجري وكان فرسي جواد المحثة فركضتهُ حتى تبعتهما . هذه خريطة فرارنا وما ادراك ما الفرار واي يوم شديد ابتلينا بهِ لا بلى الله عبداً من عبيدهِ

ولما وصلنا الى الجسر التفتُّ ورائي فوجدت دارنا قد لعبت بها النار وتناثرت سقوفها وتصاعد الدخان فوقها فصحت عن غير اختيار فوقف حينئذٍ زوجي وبنتي وعاينا احتراق بيتنا الذي كان محلاً لتعيشنا وسعادتنا ومحطاً لرحال ثروتنا فترتبت على هذا خسراننا وانخلعت قلوبنا من الحزن والاسف حيث صارت اموالنا نهباً منهوباً واعلاقنا سلباً مسلوباً . كانت الساحات غاصة بالوف مؤلفة واخلاط الناس والعامة اكثر من ان يحصى عددهم وقد اصطفوا من طرفي الجسر فما مضت على وصولنا برهة حتى وصل الينا بعض الجرحى الذين فروا من مقابلة الاشرار وقالوا ان الجنرال كراو انهزم انهزاماً رديئاً وسيلحق بنا . ولما شاع هذا الخبر وتحققت هزيمة الجنرال تطاولت الرقاب . واستاسدت الذئاب . فاظهر الهنود وقتئذ نتائج بغضائهم على السنتهم البذيئة وشرعوا يهددوننا بعبارات خشنة كأنها جمرٌ قوي الاحراق . على ان سكنة الهند عموماً

وقطان دهلي خصوصاً في ايام السلم والصلح اناس كانوا ذوي طباع لينة واكناف موطئة جانحين الى الهدو والراحة اذا لاقوا واحداً منا خفضوا جناحهم ووقفوا في الطرق احتراماً وتوقيراً يقابلونهُ بوجوه طلقة تنبيء عن كمال التجلة والتعظيم . اما في هذا الوقت فصار هشيم نباتهم مخضرًّا وصارت ارانبهم اسوداً واراذلهم شجعاناً رفعوا رايات الانتقام وألوية المكافأة . والاخادع المعوّجة والفدود التي عراها الانحناء منذ حقب وسنين اصبحت اليوم مستقيمة كالرماح السمهريات زال عنها ذلك الاعوجاج الطارئ . وقد حددوا انظارهم ينظرون الينا باعين خزر يتميزون منا غيظاً ويلتهبون علينا عداوة . وظني انهُ قد ارتسمت في الواح صدورهم كلمات منها قولهم « هذه مملكة الهند التي ورثناها من اسلافنا واحداً بعد واحد وكابرًا بعد كابر وانتم الاجانب قد دخلتم دارنا وملكتم حقوقنا وباي قانون اطلقتم ايدي الجور في املاكنا ومنعتمونا من الانتفاع بخيرات وطننا العزيز ورتعتم في رياضها الخصبة وكرعتم من مياهها العذبة . الى متى تسوموننا الخسف والجور والى م تفتحون علينا ابواب العسف والظلم . » ومجمل القول ان امارات التعصب كانت بادية على وجوههم ظاهرة من اعينهم نعوذ بالله لو فرط منا في هذا الوقت فعل فيهِ كبر وخيلاء فانا مقتولون لا محالة

ولا اسفي على فوات الفرصة ويا ليتني ارتكبت فعلاً مخالفاً لميلهم ليقتلوني هنا حتى لا أرى الذي رأيتهُ من الدواهي السود فيما بعد . وخلاصة القول اننا عبرنا الجسر حتى وصلنا الى طريق المدينة الموسوم بطريق كلكوتا فوجدنا المسالك امتلأت بالجماهير المحتشدة وضاقت بجمع كثير لا يمكن حسابهُ فمنعنا الازدحام من الدخول ووجدنا ضيوفنا الذين فروا من دارنا متوقفين هنا في حالة يرثى لها ولما شاهدونا اشاروا الينا بالترحل وقالوا « هؤلاء هم الاشرار الذين تسلط التعصب على قلوبهم وربوا ضغائنهم في صدورهم على مر الدهور وهم لا يجدون فرصة اما الآن وقد صحوا من كرى الهموم واحبوا استعادة مجدهم الداثر ووجدونا مقهورين اذلاء فاذا ظفروا بنا قتلونا لا محالة وجعلونا عرضة للمثلات فلنختفِ عن انظارهم » فنزلنا عن الافراس وتواريا في الجماعات

فبينما نحن نقتحم تيار الهياج واذا بالجلبة والضوضاء ارتفعتا من ناحية المحلة التي تسكنها حكومة الانكليز واختلطت اصوات الطغاة بهذه الكلمات « علينا ان نقتل الانكليز باسرهم » فظهر ان فرقة من العصاة هجموا على دار الحكومة وقصدوا نهب ما فيها وكان

الفضاء قد امتلأ بالأصوات المهيبة وكادت ارواحنا تفارق الابدان من هول هذا المشهد الوخيم

ما انقضت على ذلك دقيقة او دقيقتان واذا بواقعة فجيعة داهمتنا وذلك ان الاشرار حملوا على رجل من معارف انكلتره كان واقفًا هناك على فرسهِ فجروه من مركبهِ بعد ان اكثروا عليهِ من الشتم والتقريع واقبلوا يهرعون اليهِ من كل جانب فاعتوروه بالسيوف والعصي وضربوه ضربًا مبرحًا حتى فارق الحياة اوكاد . ثم جروه والقوه في خندق مملوء بالوحل والكثافات فقضى نحبهُ فشكرنا الله على ترك مراكبنا وعلى ان الشمس جنحت للغروب واخذت اشعتها المحزنة بالزوال . وكان الفيل امامنا يخطو كأنهُ اعمدة الخباء يزهو بخرطومهِ ويتخلل الجماعات ونحن نقطع الطريق من خلفهِ على غير وحشة وقد استوى محمد الفيلبان على عنقهِ ودلى رجليهِ الى الجانبين وشد على رأسهِ عمامة خضراء ولذلك كان الاهالي لا يتعرضون لهُ وهو يمر مامونًا من شرورهم وكنا اوصيناه ان يقصد منزل تاجر افرنجي كان من قدماء احبائنا ومحمد يحدو بالفيل ولا يلتفت الينا ابدًا لئلا يتطلع الاشرار علينا . وعزمت مرارًا ان ادع ابني ويل على دابتهِ ليستريح في المودج اماهو فعلق يديهِ الصغيرتين بعنقي وضم نفسهُ بنفسي وآل ان لا يفارقني ابدًا .

وكيف يسوغ لام حنونة ربت ابنها بالشفقة والحنو ان تفارق ولدها جبرًا لا والله اني لا افارقهُ ولا اقطع علاقتهُ اللطيفة من عنقي ما دمت في قيد الحياة . ولا اريد الخلاص من سلسلة محبتهِ . وما زلنا نجري مليًا والثورة تشتد حينًا بعد حين واذا بالهنود اشعلوا عدة مشاعل مزقوا بها جلباب الظلام فاعادت الليل كالنهار وارتنا الوجوه السود والعمايم البيض من الاهاند وكانت اصوات اللعن علينا مرتفعة من افواههم . حتى وصلنا الى قلعة سليم غوري فشاهدنا فيها فرقة مدفعية قد ملأوا المدافع وبايديهم الذبالة المشعلة ينتظرون أمر رئيسهم لاطلاقها على الفئة الباغية فما اتصلت الاشرار بهذه الفرقة الا وطرحوا اسلحتهم والقوا الذبالات في الخندق واخذوا المهمات النارية واتحدوا مع أبناء وطنهم وصاروا يطلقون المدافع في تلك الليلة الليلاء على الانكليز فزاد هذا الاسف على اسفنا وكانت المخاطر تتكاثر والاعداء تتفاطر . اما الاشرار فلما عاينوا هذه المساعدة الوطنية صفقوا طربًا وطفقوا يمدحونهم فاوثقوا رابطة الولاء واتفقوا معهم

الفصل الثامن

﴿ في شوارع دهلي ﴾

ونحن لم ندخل حتى الآن في المحلات الاصلية بل كنا نقطع الطريق في خارجها و ياحبذا لو جدّ الفيلبان في السير واهتم في خرق الصفوف لانا لو دخلنا المحلات المحترمة امنا من مقاساة الشدائد . لان مدينة دهلي من اعظم مدن هندستان واهمها مكانًا لا نظير لها في حصانة حصارها وقد بُنيت بالتعاليم المتقنة بمعارف المهندسين وجعلتها دولة انكلتره مركزًا عظيماً للعدد والسلاح والذخاير الحربية فهي امنع المعاقل وامتن المتامن والغرباء أن يتحصنوا فيها عند وقوع الثورات . تقدمنا بضع اقدام حتى قربنا من الدخول فصادف وصولنا مزدحمًا عظيماً من الاوباش ورعاع الناس وقد عزموا على الخروج من المدينة بهيئة اجتماعية وابتلعنا بهم كحزمة حشيش القيت في البحر تتقاذفها الامواج من مكان الى مكان فلا تلبث أن تفسد وتتلاشى

كريشة في مهبّ الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

فارجعونا القهقرى وقد صمت آذاننا من دوي المدافع والبنادق وكثرة الجلبة والصياح المحيط بنا من الامام والخلف واليمين والشمال التي كادت تشق لهولها الجيوب ومن سعادتنا اننا شاهدنا جمعًا يدخل وآخر يخرج بنوبة معينة فاتصلنا بالداخلين فدخلنا المدينة معهم وما زلنا نمشي بهذه الحركة القسرية الى ان وقفنا بساحة ميدان امام مستودع البارود فوقف الجمع وعلمنا ان الذين دخلنا معهم منهزمو عساكر انكلترة الذين كانوا تحت قيادة الجنرال كراو . انهزموا وفروا مذعورين فلم يكن الاّ كلمح البصر حتى وصل الجنرال المذكور وامر برفع الجسر خوفًا من دخول عصاة ميرتهة وتعاضدهم على تقوية الهياج واثارته فما تمّ كلامهُ حتى اقبل الاشرار وتجاوزوا الجسر وهم يستنون كخيل الطراد فملكوا الجسر وتصرفوا في الدرب الكبير من مدينة دهلي فتحقق عندنا تحققًا حتمياً ان هؤلاء الاشرار القليلي الترحم والحياء اذا استولوا على هذه العاصمة القديمة والقاعدة العظيمة واقتدروا على امتلاك الذخائر التي اذخرتها دولة انكلترة فيها فنحن مقتولون لا محالة

ولا اريد سرد تاريخ استيلاء الهنود على دهلي وايراد الحوادث التي اتفقت في اثناء ذلك اذ لايسعني في هذه العجالة استيفاء كل الاخبار وهي خارجة عن موضوع قصتي وانما قصدي الوحيد الاصلي بيان ما صادفتهُ من الصعوبات التي وهنت القوى وذهبت بالعين والاثر مع اظهار ما جرى عليّ وعلى زوجي واولادي وعشيرتي من النائبات السود في هذه الطامة الكبرى والداهية الهائلة . ان انكلترة ليست مولدي ولا محتدي ولا انا أحسب من هذه الملة اني فرنسوية وفرنسا مسقط رأسي لكني تزوجت بانكليزي على ما قدرتهُ التقادير واعطاني الله من هذا الازدواج اولادًا فانا انكليزية بهذا الاعتبار . فلو انقرضت دولة انكلترة بتمامها في الهند وانمحت عن الكرة الارضية آثارها وصارت راياتها منكوسة وعساكرها مقتولة وتبدلت ثروتها بالفقر وسطوتها بالضعف فلا يهمني ذلك اذا ظلَّتْ سعادتنا الماضية باقية وظل زوجي واولادي سالمين . والنساء اللواتي يطالعن قصتي ويطلعن على شرح غصتي وما قاسيتهُ من المصائب يعلمن ان الموت احسن من حياة بهذه المرارة لان النساء ليس عندهن سعادة الذ من سلامة ازواجهن واولادهنَّ . اما واسفاه فان عقيدة زوجي تخالفني وتهدم بنيان مقاصدي فانهُ كان يقول « ان الرجل الذي يحب شرف وطنهِ ويود رعاية ناموسه ويلاحظ حماية دولتهِ فعليهِ ان يقتحم لجة النزال فيقتل او يُقتل »

وخلاصة القول اننا جانبنا الازدحام وما زلنا نخبط في الظلماء على اثر النيل نؤم المنزل المقصود حتى تجاوزنا دار الحكومة ثم اخذنا نقطع الطريق من خلف كنيسة (سنت جمس) الشهيرة وانما اخترنا هذه المسافة البعيدة حذرًا من العبور بمحاذاة ميدان اجتمعت فيهِ العساكر وما زلنا ندأب في السير حتى وقفنا امام بيت التاجر الذي قصدناه من اول حركتنا فوجدنا ابوابهُ مغلقة ونوافذه مسدودةً وقد عرا تلك الدار العامرة سكوت سائد وظلمة عميقة بحيث يخيل للرائي ان سكانها هاجروها منذ سنين وتركوها عرضة للحوادث . فقرع زوجي الباب فلم يجبهُ احد ثم قرعهُ ثانية بطرز خاص وما اجابنا احد . ليت شعري ابن هذا الرفيق الشفيق والحبيب القديم . ابن يا ترى هذا الذي عليهِ جل اتكالنا واعتمادنا . اهكذا تكون حقوق المودة والاخاء ان يتركنا في ورطة البلايا ويستريح بنفسهِ وما السبب الذي اوجب اغضاءهُ ثم

ان كان كذلك فباي حبيب يُعتمد و باي عهد يُعتقد . فنزل النيلبان عن ظهر الفيل وطفق يدور حول الدار و يتأمل جدرانها فما وجد اثرًا يستدل بهِ على وجود انسان فيها . ولما رأى زوجي ذلك قرع الباب مرة ثالثة قرعًا عنيفًا تزلزلت لهُ اركانها فانفتحت على اثر ذلك نافذة من غرفة واخرجت عجوز رأسها منها وقالت « ان كنتم تريدون رب البيت فاعلموا انهُ نقلد سلاحهُ مع ابنائهِ واتباعهِ وذهب الى مجتمع ضباط انكلترة في برج الميعاد اما زوجاتهُ وبناتهُ فارسلهن الى محلة (بيكم شمرو) وهي احدى مثريات ونجيباتها ليكن تحت حمايتها » . ثم قالت بعد ذلك عجلوا في العبور من حوالي هذه الدار واقصدوا مأمنًا آخر ان الطغاة سيهجمون تلك الليلة عليها لاشتهارها بالثورة والغناء . ولما تمَّ الكلام اغلقت النافذة وغابت عن اعيننا وتركتنا حيارى في وسط الشارع

كان زوجي كما سبقت الاشارة يريد ان يتفق مع ابناء وطنهِ ويتحد في الدفاع لكن حالة زوجتهِ واولادهِ كانت تمنعهُ عن الاقدام بمقصوده وهل يتسنى لاحد ان يترك زوجتهُ وابنهُ وبنتهُ بين اظفار المنية في وسط الطريق في تلك الليلة الداجية ويذهب ولو كانت ركائبنا عندنا حينئذٍ لامكنا الوصول الى طريق كشمير واللحوق بعساكر الجنرال كراو اما الآن فلا تبلغ هذا المأمن الموهوم الاَّ في ساعة ونصف لبعد المسافة هذا والصياح المرتفع يثبت لنا ان الغلبة للاشرار والخذلان للانكليز وكانت آلن من ساعة فرارنا من بيتنا ما تكلمت بكلمة لانها تتفكر في امر زوجها وتمضي وقتها بذكره وكاني بها تركت جسمها لنا واودعت قلبها عند ويليام ولما رأت ارتباك امرنا وتضارب رأينا صاحت قائلة « لماذا تمكثون في المسالك بين المخاطر ان مخزن الاسلحة نقطة مهمة حصينة فعلينا ان نقصدها لنكون آمنين » هل يشتبه عليَّ غرض بنتي كلاَّ اني اعرف انها انما تريد بذلك ان تتصل بزوجها وتكون مأمونة عندهُ حيث كان مأمورًا بحراسة المهمات الحربية في هذا المخزن ففرح زوجي وقتئذٍ وقال صدقت آلن في قولها واظنها مصيبة الرأي اننا لو وصلنا مخزن الاسلحة ما طرأت علينا نائبة فيهِ لاجتماع الافرنجيين هناك فصوبت رأيها وقصدنا الطريق فلم نكد نسير قليلاً حتى وافانا كارث البلايا اقعدنا عن التقدم وقطع علينا السبيل

ظهرت من خلفنا فرقة عسكرية طاغية مع مشاعل وهم يعدون عدوًا سريعًا ويمدحون سلطانهم فاستقبلتها فئة عظيمة من الاشرار بحرض بعضهم بعضًا على قتل الافرنج ونهب اموالهم · ومن سعادة جدنا ان الفيل كان وقاية لنا من الابتلاء بالصدمات لاننا كنا نمشي خلفهُ ولولاهُ لهلكنا عند التقاء الفئتين فحجز بيننا وبينهما وصار حائلاً بجثتهِ · وما زلنا نكابد الاخطار حتى وجدنا بابًا عالي البناء فدخلنا تحت طاقة من طاقاتهِ واختفينا فيها وتلاقت الفئتان فما اطلعتا علينا · وثبتَ عندنا ثبوتًا حتميًا ان الثورة ستشتدُّ وتعظم وانهُ ستجري سوابق الفتن في مضمارها وتشكل وجوهُ الخلاص منها · ولما شاهدنا رجال الفرقتين الرابعة والسبعين والعشرين قد نصبوا رؤُوس قوادهم الانكليز على اسنة بنادقهم وقد خلا الطريق قصدنا المخزن وزوجي امامي يمشي قابضًا على عضد آلن · واما ويل فكان في حجري وقد اخذه النوم وانا امشي من خلفهما والداية ترافقني ونحن نرتعد كاوراق الخريف من خوف ما عايناهُ وما زلنا نمشي حتى مررنا بجانب جدران خربة محيطة بحديقة الدولة الانكليزية واذا بخطب فادح آخر القينا بهِ افضت حالتنا بهِ الى قلق واضطراب عظيمين وذلك ان الجامع المخصوص للمسلمين كان في آخر الطريق وشاهدنا العساكر بريدون الدخول بهذه المحلة ومع انهم يقتلون غالبًا فهم يصرون على الدخول بهجمات شديدة فوضح لنا ان فرقة من عساكر الانكليز اتخذوا دهليز الجامع استحكامًا حربيًا لمنع الطغاة من العبور من هذا المقام · فصار ذلك علة للتماحك والتضارب بين الفريقين واتفقوا على انتزاع الجامع من ايدي الانكليز وابرموا امر المقاتلة

وكانت المساكن حول المسجد في حالة الاحتراق وكنا نرى الهنود بهيئات عجيبة وصور مهيبة مشوهة يتجولون في البيوت ويثبون من مكانٍ الى مكانٍ يأخذون الاخشاب المشتعلة ويلقونها في البيوت لتعميم الحريق · كانت العمارات والابنية المتعلقة بسلاطين دهلي في الجهة الشرقية والريح تهب حينئذٍ من تلك الجهة فارادوا احراق بيوت الافرنج واوقدوا النار في واحد منها فاشتد هبوب الريح شيئًا فشيئًا واضطرم لهيب النار وتدرجت الشعلة فاحرقت الدور والتهمت تلك المباني الباذخة بتمامها وسلمت مساكن الكوركانيين من شرار الحريق · وفي اثناء ذلك هجموا وازدحموا وتسابقوا ووقعنا بين هؤلاء المتعصبين وهم متفقو الكلمة يصيحون ان الدمار والبوار

للانكليز · ومن الاتفاقات الحسنة اننا رأينا في اليمين شبحًا لبيتٍ من البيوت فقصدنا ذلك البيت مع علمنا ان الاشرار وردوهُ وشنوا الغارة عليهِ وهم مشتغلون فيهِ الى الآن ولما وصلناهُ وجدنا دهليزًا وسيعًا محفوظًا لاشتداد الظلام عليهِ فرأينا الاختفاء فيهِ نعمة عظيمة لوقاية حياتنا · اما الفيلبان فانهُ رافقنا الى ابتداء المحلة لكنهُ ما قدر على خرق الصفوف فاضطر للعبور من طريق آخر وكان ويل في حجري غريقًا في النوم فهب من نومهِ مذعورًا وشرع في العويل والبكاء وعلا صوتهُ فعلمت ان الاشرار الذين في داخل البيت وخارجهِ سيطلعون بدلالة الصوت على مكاننا فكنت الاطفهُ واقبلهُ وهو لا يسكت ويستمر في عويلهِ · وهل يعلم الطفل الصغير في اي حال نحن

الفصل التاسع

﴿ السرداب المهول ﴾

والدار التي التجأنا الى دهليزها لرجل متمول انكليزي لا نعلم هل فرّ منها في اول الثورة مع اهل بيتهِ ام وقع في مخالب الموت · اما الهنود فكانوا يعدون في الغرف الفوقانية ويتجسسون الحجرات كالمجانين يصوتون بصوت القرود والسنانير ويثبون من نافذة الى اخرى يكسرون الآنية الثمينة ويفرغون قوارير العطريات في الارض ويحرقون الوسائد المزركشة ويمزقون نضايد الديباج وستور الحرير · فلما فرغوا من اعمالهم جمعوا حزم الحطب والعيدان في ساحة الدار كتلٍ صغير كأنهم يعزمون على احراق اموالهم كما هو من عوائدهم المذهبية

ثم شرعوا يتفحصون المراتب التحتانية ومضايق البيت ونحن نسمع اصواتهم الشبيهة باصوات الكلاب التي تعاقب الصيد وتحنوشه فاذا بلغت اليهِ اولجت انيابها في اعضاء ذلك الحيوان وصاتت بصوت ينبئ عن شغفها وسرورها · وهؤلاء الاشرار كانت ترتفع اصواتهم كل بضع دقائق ثم تتبع ذلك الصوت المنبئ عن الفرح والنشاط انة فجيعة توضح لنا ان الانين من المضروبين وصوت النشاط من الضاربين

لم يلتفت الينا احد من الاشرار الى هذا الوقت لاحاطة الظلمة بالدهليز وعند ذلك داخلنا رعب شديد مخافة انهم اذا انهوا عملهم وارادوا الخروج من الدار تجسسوا الدهليز فيسفكون دماءنا وينضي امرنا الى ما لا تحمد عقباه . فتوكلنا على الله ووردنا ساحة البيت وقلوبنا واجفة مما سنلقاه من المناظر المكربة فاختفينا في زاوية احاطت بها اشجار كثيرة ونبات اثيث ولما قرّ بنا القرار وجدنا في الجدار نافذة مطلة على سرداب وبعد هنيهة ارتفعت من هذا المنفذ صيحات شديدة واصوات هائلة واطلقت عدة رصاصات متوالية . ثم استنار بعض السرداب فتفرسنا فيهِ فشاهدنا جماعة من الافرنج وقعوا في مخالب انتقام اولك السفاكين وابتلوا في قهرهم . استمرت الجلبة خمس دقائق ثم انطفأ السراج . وغلبت على السرداب ظلمة وبعد هنيهة شاهدنا الاشرار يقبضون على رجل طويل القامة يجرونهُ من السرداب ولما وصل وسط الساحة اوقدوا النار في تلك العيدان المجتمعة هناك وقربوا ذلك الرجل منها فخيل لنا ان الطغاة يقتلونهُ اولاً ثم يطرحونهُ في هذه النار الموقدة لكنهم اقدموا على امر فظيع ارتجفت ابداننا من معاينتهِ وطارت لهُ انفسنا شعاعاً وذلك انهم القوه في النار وسلوا سيوفهم وصوّبوا نحوه مسدساتهم واحاطوا بهِ احاطة السوار بالمعصم فهاجت النار واضطرمت اضطراماً شديداً وفاح القتار . اما ذلك الرجل التعيس فكان يريد الخلاص وهم يمنعونهُ باسنة بنادقهم وظبات سيوفهم ويرجعون اليهِ بضرب المقارع المولمة ويجيبونهُ بالاجوبة المقذعة ويرمونهُ باللعنات والشتائم

واني اتعجب من ثبات هذا الرجل الغيور وشهامتهِ فانهُ عزم على الفرار ثلاث مرات حفظاً لحياتهِ فلما استحوذ عليهِ القنوط واليأس جلس في وسط اللهيب من غير ان يلتجئ الى الاشرار ثم بسط يديهِ الى السماء واشتغل بالدعاء حتى اكلتهُ النار واحترق فصار رماداً وحال الدخان بيننا وبينهم . ولا تسل عما ألمّ بنا من الرعب بين يدي ذلك المشهد المهول الذي نرى فيهِ الدواهي سود المناظر والمنايا حمر الاظافر . فربطت فمي بمنديل خوفاً من ان اصيح من هول هذا المنظر الذي يقشعر منهُ الجماد وتنفطر لهُ الاكباد . هذا واستنبطنا من قرائن اقوالهم ومحاوي مطالبهم ان ذلك الرجل الذي احرقوه احد نجباء انكلترة ومشاهيرها وانهُ قاضي قضاة مملكة دهلي واوده وانهُ هو الذي انتظمت نظامات انكلترة وقوانينها في ممالك الهند بمساعيهِ

وشاعت باقدامهِ ولهذا السبب قتلوه بهذا العذاب الاليم . ولما احترق القاضي شرعوا بالانتشار رويدًا رويدًا وتركوا الدار خالية من شرورهم . اما نحن فكنا متحيرين في امرنا الى اين نلتجئ وهل من دليل يوصلنا الى برج الميعاد لنتصل بابناء وطننا واذا اردنا المرور من هذا الطريق فان طريقنا من امام الجامع والاشرار هاجمون لاستخلاصهِ من ايدي الانكليز فاجتماعهم يمنعنا من العبور فقال زوجي قد تخامص الليل وارى ان نتوقف هنا الى وصول الفيلبان وما تأخر عنا حينئذٍ الاَّ لتواتر الهجمات وتوالي الثورات اما الآن وقد خلت المحلة وارتفعت الموانع سيجدنا . على ان بقاءنا في طي الاستتار اقرب لمصلحتنا

فتدبرت رأيهُ فوجدتهُ مصيبًا لان الهنود اذا احرقوا ذلك البيت وقتلوا ساكنيهِ لا يعودون اليهِ وعزمنا على التوقف ريثما يسكن الهياج وترتفع سورتهُ . وليالي هندستان على خلاف ايامها فانها تكون في غاية البرودة وقد كنا نصطلي ببقايا تلك النار التي احرقت القاضي ثم احتجنا الى مكان يقينا من سطوة البرد فقال زوجي اسلم الطرق ان ندخل احدى هذه الغرف فمشى واخذنا نمشي في اثرهِ فصعدنا من درج عظيمة مشرفة على سطح غرفة وسيعة فوجدنا الحجرات مبنية على سمج احد وقد اتصلت الطرق من هذه الى هذه تسهيلاً في الدخول والخروج . ولما شاهدناها خالية ورأينا الاغلاق منكسرة لان الاشرار حملوا النفائس الثمينة واحرقوا ما وجدوه ثقيلاً غير لائق بالنقل مازلنا نفحص فيها حتى وصلنا الى حجرة صغيرة خلف تلك الحجرات فوجدت هناك اسرة وبسطًا وانماطًا ففتحتها وانمت طفلي ويل فيها وقبلت وجههُ وسألت الله جل وعلا ان يحفظهُ من الآفات واوصيت الداية ان تحرسهُ

ثم خرجت مع بنتي وزوجي وبحثنا عن شمعة فوجدنا بقية منها فدخلت بها في السرداب الذي أخرجوا منهُ القاضي المقتول وقد كنا نسمع اثناء ذلك انين الجرحى وحشرجة المائتين فحتمنا على انفسنا ان ندخل هذا المقام ونفتش فيهِ عسانا ان نفوز بانقاذ الذين بقيت فيهم حشاشة من هؤلاء التعساء . وخلاصة القول اننا نزلنا السرداب فدسنا على اوحال لزجة زلقت عليها اقدامنا ونحن لا نعلم هل هي اوحال الدماء السائلة ام هي من الخمور التي انكسرت دنانها . فاستعنت بالجدار في المشي فاحسست فيهِ ايضًا رطوبة غليظة فقربت الشمعة من يدي فرأيتها

ملطخة بالدم وعلمت ان رطوبة سطح السرداب من الدماء الجارية . فما تقدمنا في تلك المذبحة الهائلة ثلاث اقدام الا وتورطنا بين اعمار تباح ودماء تساح . وجوارح مقطوعة واشلاء منهوكة . وعاينا في بعض الاركان جماعة من النسوان داميات القلوب يعالجن سكرات الموت وقد فتك الاشرار بهن فتكًا ذريعًا ونزعوا احجالهن ورعثهن وجرت الدماء كالسيول على السابلة . ورأينا في ركن آخر رؤوسًا مدحرجة وجثثًا بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض فما وجد هؤلاء الاراذل في ذلك المكان الذي هو قرارة المغايب ومجتمع المثالب طريقًا للقتل الاَّ سلكوه ولا بابًا للفظائع الشنيعة الاَّ فتحوه . ولقد شاهدنا ما تشمئز منهُ القلوب القاسية وتضيق من حكايتهِ الصدور الواسعة

فيا لفظاعة الخطب وويحًا لهذه الليلة الدهماء المشحونة بالمصايب والمكارب هلا يؤثر النظر على الجراح في الانسان . وهل الافئدة لاتتأثر من معاينة الجروح . فتقدمت انا وزوجي واخرجنا الاجساد التي فيها رمق من هذا المضيق ليسهل نزعها واحتضارها ثم رأينا بين القتلى امرأتين اصابتهما جراح قليلة بالنسبة الى الباقين ووجدتْ بنتي طفلاً سالمًا فاخذ زوجي احدى الجريحتين في حجره ليذهب بها الى ساحة البيت حفنًا لدمها فلما أراد الصعود من الدرج صاحت تلك المجروحة صيحة خرجت من اعماق قلبها من شدة الالم فخاف زوجي من رجوع اولئك الرعاع السفلة على اثر الصوت لانهم كانوا مشتغلين في بيوت الاطراف بالفتك والنهب حتى الآن وخاف ان يكون لهم عيون او جواسيس فوضعها على الارض فارادت الضعيفة ان تقوم من غير معاونة فما قامت الاَّ وسقطت على الارض من شدة الضعف

فدنوت منها لمعاونتها فاذا بها قد قُطعت احدى يديها من الساعدين والدم يجري من محل القطع جريًا سريعًا . اما الطفل الذي وجدتهُ آلن فلا يتجاوز سنهُ أربعة أو ثلاثة اعوام فلما رآنا نقصد ظننا نريد بهِ سوءًا ففر منا مذعورًا واختفى بين اجساد القتلى فشرعت آلن تكلمهُ باللهجة الانكليزية وكانت تلاطفهُ وتسليهِ حتى مال الينا وعرف اننا نريد تخليصهُ فخرج من تحت الجثث ودنا منا والقى يديهِ في عنق بنتي وشرع يبكي ويقبلها فجددت لي حالتهُ رقة حتى دمعت عيناي . وفيما نحن في هذه الحالة واذا بصوت قاصف كهزيم الرعد اتانا من جهة الباب فعلمنا انهُ صئي الفيل وان محمدًا

وجدنا فاعترانا من مجيئهِ وقتئذ ارتياح تام وشعف باطني اذ تصوّرنا انهُ يتركنا ويذهل عنا فضلاً من معاونتهِ على خلاصنا

هذا الرجل الصديق الصافي السريرة من مسلمي الهند عاش في دارنا في عنفوان شبابهِ حتى ناهز عمره الاربعين ومع ان ابناء وطنهِ كانوا يصرُّون على اراقة دمائنا ظل هو يخالفهم في ذلك ويرافقنا في السراء والضراء وفي حالتي الشدة والرخاء. وما زال الى ان قتل في سبيلنا كما سيأتي وخصلتهُ هذه مما يذكر فيشكر لله درهُ من رجل وافٍ بعهوده ومواثيقهِ فانهُ اتم مراسم الوفاء وراعى شرائطهُ حق الرعاية في مواقف الحتف ومواطن الردى . وبعد ملاقاتنا حلف بالله ونبيهِ ان انقطاعهُ عنا ما كان الاَّ لاشتداد الهجمة التي قطعت عليهِ السبل فما قدر على سوق الفيل حتى خلت المسالك فداوم على السرى فلما وصل بمحاذاة هذه الدار ووقف فيها الفيل علم محمد اننا فيها . فاستعلمنا منهُ اخبار الثورة واحوال دهلي فقال . « حدث بين الفريقين معارك ووقايع مهولة كانت الدائرة فيها على الانكليز وتسلطت الجنود على دهلي بتمامها واختاروا سلطانها القديم المنزوي بسلطنة الهند فتبوَّأ تخت الملك . وشنوا الغارة على مساكن المتمولين وقتلوا من وجدوا من اناث وذكور وشيوخ وشبان ووضيع وشريف فذهبت دماؤهم ادراج الرياح وقد حصل للاشرار تمام التسلط والنفوذ وتحكموا كيفما حكمت اهوائهم . اما العساكر المتحصنون في مخزن الاسلحة فخارت قواهم وانحلت عزائمهم فتبدد شملهم وتفرقوا هاربين وما في ايدي انكلتره من الاستحكامات الآن الاَّ مستودع البارود (بارود خانه) فان بقية العساكر التجأوا اليهِ مع اعاظم قوادهم وضباطهم . ودرب كابل فيهِ أيضاً عصابة حافلة من الاجانب وقد تدججوا في شكتهم واستعدوا للنزال . اما الجنرال كراو فانهُ يقاتل الثائرين في هذا الجوّ وقد اجتمعت حولهُ جماعة كثيرة من الارامل والايتام والرجال والنسوان »

الفصل العاشر

اضطراب عظيم

ففزعت انفسنا من استماع هذا التقرير واستطارت افئدتنا ارتياعاً ووقعنا في اضطراب

قصم ظهورنا ولا نعلم هل يجوز لنا البيتوتة في هذا المقام ام خروجنا اولى وكان محمد يقول اغتنموا ظلمة الليل وانتقلوا من هذه الورطة الوبيلة الى مأمن اخر فاني لا اوافقكم على البقاء هنا . ولكن الى اين نذهب ان قصدنا دار الانكليز القينا نفوسنا فى التهلكة وان أقمنا في هذا المكان لا نأمن الابتلاء ببلية اخرى عند انبلاج الصبح لقرب هذه الدار من مراكز العصاة والمساجد الاسلامية ولما شاهد الفيلبان اضطرابنا فكر هنيهة وقال « لا تخافوا ولا تحزنوا اني ادلكم الى بيت أحد من احبابي وهو متحد معي في الطريقة والمذهب على انهُ رجل طيب العريكة صافي النية لا يخالج قلبهُ الا المصافاة ولا يقاس بهؤلاء الجماعة الذين هاجوا الفتن . لكنني اخاف ان تهيجهُ العصبية فلا يقبلكم متابعةً لابناء وطنهِ وتقليدًا لهم . واما اذا دخلتم داره من غير اعلام واطلاع فتجدونها كمعقل حصين لكم . وقد حنكتني التجارب واني اعرف منكم بابناء وطني فانهم اذا التجأ اليهم ملهوف يلاقونهُ بوجوه مستبشرة ويرحبون بهِ ويعدون احترامهُ والتلطف بهِ من شرائط المروءة ودعائم الايمان ويتغاضون عن التعصب الملي والتباين الديني ولا يعبأُون باختلاف المذاهب وتنافر المشارب ولا يبخلون ببذل النفوس في سبيل انقاذه من ورطة التعاسة والخلاصة انهم اذا اجاروا مستجيرًا لبوا حاجاتهِ ما دام ذلك في امكانهم وهو في بيتهم شريف القدر الى ان يخرج منهُ والاولى ان نبرح مقامنا هذا ونقصد ذلك الرجل واعلم علمًا يقينًا لا يشوبهُ شك انهُ متفق الآن مع رفقائهِ المسلمين في القتال وهذا من سعادتكم »

فتأمل زوجي قليلاً وقال لهُ « كيف استولى الطغاة على مخزن الاسلحة ذلك الاستحكام المنيع وما فعلت العساكر المجتمعة فيهِ هل انت صادق في قولك ام مازح . وهل قتلوا هؤلاء المحصورين ثم تسلطوا عليه » فاجابهُ الفيلبان وقال « ان في هذه الساعة التي انا قائم فيها بين ايديكم حاضر لخدمتكم لم يبق للانكليز من استحكامات تلك العاصمة الا مستودع البارود وقد تسلطوا على تمام المهمات والذخائر وتبدلت تلك الحصون الشاهقة والقصور المبهجة والمراسح المزخرفة برسوم خاوية واطلال بالية » ولما سمعت آلن الخبر خرجت من السرداب على عجل ونادت باعلى صوتها « لم نتأخرون في الذهاب الى مستودع البارود » وقد نسيت بنتي المسكينة مخاطرات السبيل وهي انما تريد ان تتصل بزوجها لا تبالي باقتحام الاخطار كانها قد اختلت

مشاعرها واعتلت حواسها وعند ذلك تقدم الفيلبان اليها وقال « لا تقدرين على الذهاب الى ذلك الموضع ولا ادعك تذهبين لان العساكر والضباط المجتمعين فيهِ ضمموا على احراقهِ عند الاضطرار في آخر الامر لئلا ينسلط الهنود على البارود وسائر الذخائر النارية وليس ذلك الاَّ خدمة للشرف العسكري وتثبيتاً للغيرة وحفظاً لناموس الدولة الانكليزية واعلاء اسمها ولئلاَّ يبتلوا بعار الاسر وشنار المغلوبية وسيحرق هؤلاء الشجعان انفسهم بنار الغيرة فلا يمكن لك ولا لمثلك الذهاب اليهِ » فما سمعت آلن هذا الكلام الاَّ واخذتها رعدة وخرت مغشياً عليها . فذهبتُ اليها ووضعت رأسها على ركبتي ولاطفتها حتى فتحت عينيها وذكرت اسم ذلك المخزن ثلاث مرات وسكتت ثم اخذت رأسها بيديها وتنفست الصعداء واستولت بعد ذلك على حركاتها وأطوارها آثار الكآبة وذبل سيماها وانهكتها الهموم في عنفوان شبابها

اما الطفل الذي وجدناه في السرداب فانهُ آنس بآلن أُنسًا غريبًا وكان واقفًا على مقربة منها يبكي على حالتها المحزنة ومحمد يصرُّ على الذهاب . فاشرت اليهِ هل يجوز في قانون مروءتك وطريقة انصافك التي تنتمي اليها ان نترك هاتين الضعيفتين هنا ونذهب واي آدمي يرضى ان يترك نوعهُ في ورطة البليات ويهرب . فلما عاين اصراري على نجاتهما دمدم باللهجة الهندية قائلاً « قد تعلقتْ مشيئة الله بانقراض الانكليز وزوالهم ولا يفيد التدبير مع تقديره اذ لا راد لامره ولا مقاوم لحكمهِ » وأطرق ملياً وهو ينكت الارض ثم دخل السرداب من غير ان يكلمني واخرج احدى الامرأتين ووضعها في هودج الفيل وهي لا تزال تصيح منذ رؤيتنا الى هذا الوقت لانها تحسبنا من الاعداء وتسبنا حتى علمت انا لا نريد بها شرًّا فسكتت اما الضعيفة الاخرى المنقطعة الساعد فربطنا جرحها لئلا يندفق منهُ الدم فاتكأت على زوجي وصعدت من الدَّرَج واجتمعنا ووضعناها في الهودج اما الطفل فانهُ لم يفارق آلن ولم يرض بالجلوس عندها وما زلنا نصرّ حتى فرقناه منها وعزمنا على الرحيل على اثر الفيل

الفصل الحادي عشر

﴿ نشد الضالة ﴾

ما تحركت هذه القافلة التي سائقها الغم ورائدها الهمُّ الاَّ واثمرت شجرة تعاستي ثمرًا جديدًا ورزئنا بخطب زاد حرارة الاكباد وفرش للجنوب شوك القتاد . وذلك اني تركت زوجي وبنتي ودخلت تلك الحجرة التي أُرقدت فيها طفلي لاوقظهُ فنلحق معهُ ومع دايتهِ بالمسافرين فرأيت بساط النوم خاليًا والداية مفقودة فدققت نظري ومسحت بصري فما وجدتهما وطفقت اتجسس الزوايا والغرف انشد ضالتي العزيزة فما رأيت لها من عين ولا اثر . فشهقت حينئذ شهقة فظن زوجي اني وقعت في ايدي الاشرار ودخل الغرفة مع الفيلبان وهما مندهشان وقد اخرجا مسدسيهما للدفاع فلما وجداني وحيدة قالا ما العلة لعويلك وصياحك فلم اجد كلمة اقولها من اشتداد الهموم ولكنني جعلت ألطم وجهي وامزق ثيابي واصيح مثل المجانين واقول اخذوه قتلوه

فعلت زفرتي وطال انتحابي وبدت لوعتي وسالت دموعي

فسأل زوجي من الذي اخذوه من الذي قتلوه . قلت اخذوا ابني . فقال اين دايتهُ فاجبتهُ هي ايضًا مفقودة ثم قلت « يا الهي ان مضت ارادتك وجرى تقديرك بفقدان طفلي لاكون في الدنيا محرومة من حظوظ ملاقاتهِ فاسأَلك ان تمن عليَّ بموت عاجل لعلي أراه في العالم الآخر فقد انهكتني المصاعب ولا أقدر على مفارقتهِ » وبعد هذا اخذ زوجي شمعة وشرع يتجسس الحجرات حتى اتى على تمامها فلما يأس من وجدان ويل شاركني في البكاء والنواح ومن زيادة الغصص وتراكمها اتفقت لهُ حالة غشوة فسقط على وجههِ مغشياً عليهِ عند منامة ابنهِ فلماعاينت حالتهُ نسيت همي وخرج خيال ويل من مخيلتي فوقفت على رأسهِ وقد اصفر لونهُ وتشبك هدبهُ بهدبهِ واستولى على حواسهِ همود عظيم لا يتحرَّك ابدًا فخفت ان تعتريهِ سكتة اوفجأة لان الحوادث والخطوب التي تقبل على المرء بغتة كثيرًا ما تورث السكتة والهلاك وازدادت وحشتي من ان يخفت من هجمات الغصص فيتركني في ورطة البلايا . نحن الامهات نكوف

رقيقات القلوب بالنسبة الى الآباء وذلك من القوانين الحتمية التي أودعها الله جل وعلا في طبائعنا ولولا هذه الرقة والحفاوة لتبدد سلك تربية الاولاد . وكان عليَّ ان اكون اكثر همًّا وازيد غصةً من زوجي لكنني تجلدت وشرعت بتسليته وفتحت حلفات قميصهِ لدخول النسيم البارد الى قلبهِ ثم وضعت فمي على أُذنهِ وصرت أُسليهِ قائلة :

« ان الداية لما تصورت حالة ابتلائنا وصدماتنا الواردة توحشت واخذت طفلنا وذهبت بهِ الى مأمن لمحافظتهِ . هوّن عليك الامر سنجد ابننا قم بنا نذهب لعلنا نجده في احد المعابر » ولكن وا اسفي فان كلماتي ما اثرت في زوجي وكان الروح فارقت ذلك الجسم العزيز فايقنت بموتهِ ففلت في نفسي يا ترى ماذا افعل الآن دعوت محمدًا مرارًا فما اجابني واذا بهِ دخل ووضع على الارض طستًا مملوًا من الماء واشار بصب الماء على قلبهِ وجبهتهِ وما زلنا نرش عليهِ الماء حتى افاق قليلاً بعد مضي دقائق وسمعنا منهُ انينًا ضئيلا دلنا على حياتهِ ولما فتح عينيهِ سالني عن بنتهِ آلن بصوتٍ رخيم وقال ابن هي فانهُ كان متيقنًا انهُ لن يلاقي ابنهُ بعد ذلك فقطع علاقتهُ وتعلق رجاؤُه بآلن ثم قبضتُ على ساعده فاتكأ علي حتى استوى جالسًا وعانقني واستمر البكاء بيننا لفقد ولدنا الذي كان ذخر شبابنا فرق قلب الفيلبان من نواحنا وقال لي « خنضي عليك الامر وهوني ولا تندبي اكثر من ذلك وكوني قوية القلب واني اعلم ان ولدك عند دايتهِ الآن ترين هذه الغرفة ليست فيها اثار دم وقتل نفس انظري سطح الغرفة هل تجدين فيهِ شيئًا من ذلك . هذا وقد اشتبك القتال واستعرت نار الحرب خذي حذرك وبادري بالحركة مع زوجك وبنتك عسانا ان ننجو من هذه الورطة واعلمي ان الداية لما رأت ارتباك امرنا ذهبت بهذه الامانة الثمينة الى مكان آخر . ولقد ظالما جرّبت الدهر في حالتي شدتهِ ورخائهِ وطالما لدغتني عقارب المصايب وسرت اليَّ سمومها ووقعت مع الخطوب السود فما قنطت من رحمة الله الشاملة حين تورطي البلايا وابتلائي بمكابدة الهموم لانهُ تعالى فتح عقدتها حتى هبت سعادتي من رقدتها وهو الذي يوصل الطالب الى مطلوبهِ والمحب الى محبوبهِ وقد قيل للدهر طعمان حلوٌ ومر وللايام صرفان عسر ويسر » ومجمل الكلام انا لم نعرف لويل مثوى . وذهبت ابحاثنا عنهُ بغير جدوى وتسلينا بكلام الفيلبان وخرجنا من البيت والدموع تجري

الله تعالى بمساعيك المشكورة . ودخلنا مأمنًا منيعًا . لكن قلت له اين ولدي العزيز فقال « لا تيأسي ولا تجزعي ان الله يكلأه وسافحص عنهُ بعد ساعة اما الآن فعلي ان اهيء لكم شيئًا من الطعام لعلكم تتغذون بهِ » قال هذا وذهب . اما غرفتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عدة من الكراسي والتخوت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان ننام لعلنا نريح ادمغتنا من التشويش . وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا قط فقد كنت طريحة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكفت اضلاعهم عن الاضطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانهُ كان قد اخذ منهُ النوم ماخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هو شغلي الشاغل فاني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعبأ بشتات حالي وسوء مآلي ولا اتذكر مصائبي الآتية بل نسيت الحوادث كلها راضية بجريان القضاء والقدر وانحصرت تفكراتي في ابني و يل وتعلقت حواسي بتردد تذكاره تعلقًا شديدًا لاتنفك منهُ طرفة عين . يا ترى هل اخطفتهُ المنون ام في اي حال هو وليت شعري هل هو سالم الآن كما كان عندي . اما قلبي فكان يبشرني تارة بحياتهِ وانني سأفوز بسعادة ملاقاتهِ واخرى تأخذني الهواجس بانهُ لو قتل في ايدي السفاكين ما افعل بعده وكانت وساوسي تزداد شيئًا فشيئًا حتى بدت تباشير الصباح والقت الشمس ردائها الفضي على جبين الفلك

جاء محمد وقتئذٍ وفتح باب الغرفة واتانا بخبز وفاكهةٍ وشيءٍ من الطعام المطبوخ واكد تأكيدًا بليغًا في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من مأمنكم هذا الى قاعة الدار فان الهنود لا يبقون على احد ويسفكون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تختفوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمرًا لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوكم واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابهُ اليَّ وقال تسلية لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجتمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام . فالمجروحتان اللتان خلصتا من الهلاك جلستا في زاوية . وذلك الطفل رافق بنتي وجلس عندها . اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال آلن واعمالها اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مهيج عسى ان تنبجس من عينيها قطرة دمع فينطفئ لهيب غصتها في داخل قلبها

والتملص من ايدينا . فقال زوجي ابن تريدين في مشيتك . فاجابت اذهب الى مخزن البارود لان زوجي فيهِ واني متيقنة انهُ يترصد وصولنا . يا ويح قلبي ان ابنتي صارت مجنونة لا تعبأُ بنصائحنا وقد اشتد شوقها الى زوجها فجعلت جلّ همها بلوغ اوطارها كانها هيكل يمثل حالة الحزن وناهيك ببال مشتغل . وبلبال مشتعل

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيهِ وخطاب من لا يفهم

الفصل الثاني عشر

﴿ بيت علي ﴾

فاخذناها بالعنف وتأبطنا ذراعها واخبرناها بمتابعتنا . وهذه المحلة التي نحن الآن فيها أسلم المحلات على اننا كنا نسمع من بعيد عجة الضاربين وضجة المضروبين ونرى في الافق المظلم الذي يحاذي الافق الشرقي شعل النار التي علت من البيوت المحترقة . وفي اثناء ذلك وقف الفيلبان وقال « قفوا هنا وانتظروني ولا تتحركوا ابدًا حتى آتيكم بخبر » قال ذلك واخذ ناحية الجدار واستمر في السرى وكان الجدار مجصصًا فكنا نرى شبحهُ في طول خط هذا الجدار الابيض فما فارقنا عشرين قدمًا حتى توقف فلاحظت بدقة ووجدتهُ متوقفًا امام باب عظيم يقرعهُ بطرز خاص يفهم السامع منهُ ان قارع الباب لهُ ود قديم وسابقة عهد مع صاحب البيت . ففتح الباب وطالت صحبتهُ مع الفاتح برهة . فيا لها من صحبة حفنت دمائنا ومكالمة اشترت حياتنا . تلك المكالمة التي لم تمتد اكثر من خمس دقائق لكنني تصورتها اطول من خمس سنين حيث كنا بين خوف ورجاء وانقطاع والتجاء حتى اذا تمت الصحبة وصفر محمد فعلمنا انهُ يدعونا فتحركنا حتى بلغنا باب الدار فاشار بالدخول فلما دخلنا حسبنا انفسنا في جنة عدن فمررنا من حديقة وسيعة تنتهي الى عمارة عالية فوقفنا عندها وحططنا احمالنا من متن الفيل ووردنا غرفة فاغلق الفيلبان بابها وقال وهو فرحان « احمد الله على شمول نعمهِ عليكم لانهُ وفقني بعونهِ وعنايتهِ الى انقاذكم من الهلكة » قلت نعم انقذتنا الطاف

الله تعالى بمساعيك المشكورة . ودخلنا مأمنًا منيعًا . لكن قلت لهُ اين ولدي العزيز فقال « لا تيأسي ولا تجزعي ان الله يكلأه وسافحص عنهُ بعد ساعة اما الآن فعلي ان اهيء لكم شيئًا من الطعام لعلكم تتغذون بهِ » قال هذا وذهب . اما غرفتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عدة من الكراسي والتخوت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان ننام لعلنا نريح ادمغتنا من التشويش . وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا قط فقد كنت طريحة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكمت اضلاعهم عن الاضطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانهُ كان قد اخذ منهُ النوم ماخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هو شغلي الشاغل فاني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعبأ بشتات حالي وسوء مآلي ولا اتذكر مصائبي الآتية بل نسيت الحوادث كلها راضية بجريان القضاء والقدر وانحصرت تفكراتي في ابني ويل وتعلقت حواسي بتردد تذكاره تعلقًا شديدًا لا تنفك منهُ طرفة عين . يا ترى هل اخطفتهُ المنون ام في اي حال هو وليت شعري هل هو سالم الآن كما كان عندي . اما قلبي فكان يبشرني تارة بحياتهِ وانني سأفوز بسعادة ملاقاتهِ واخرى تأخذني الهواجس بانهُ لو قتل في ايدي السفاكين ما افعل بعده وكانت وساوسي تزداد شيئًا فشيئًا حتى بدت تباشير الصباح والقت الشمس ردائها الفضي على جبين الفلك

جاء محمد وقتئذٍ وفتح باب الغرفة واتانا بخبز وفاكهةٍ وشيءٍ من الطعام المطبوخ واكد تأكيدًا بليغًا في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من مأمنكم هذا الى قاعة الدار فان الهنود لا يبقون على احد ويسفكون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تختفوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمرًا لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوكم واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابهُ اليّ وقال تسلية لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجتمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام . فالمجروحتان اللتان خلصتا من الهلاك جلستا في زاوية . وذلك الطفل رافق بنتي وجلس عندها . اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال آلن واعمالها اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مهيج عسى ان تنبجس من عينيها قطرة دمع فينطفئ لهيب غصتها في داخل قلبها

ويخرج بعضها بواسطة البكاء

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحةً من الهم او يشفي نجي البلابل

لكنهما لم تكن تعبأ بكلامي ابدًا ولا تأكل الغذاء فاكلنا شيئًا من الفاكهة فانسدّ الجوع وشربنا الماء من ابريق كان عندنا اما هاتان الضعيفتان فكانتا تتنفقان من الماء اكثر مما يلزمهما فانهما بعد ان سكن عطشهما شرعتا تغسلان جروحهما بذلك الماء القليل. فتقدمتُ اليهما وقلت لهما بلطف ووداعة اريد تنبيههما « ان الماء الذي تتلفانهِ بهذه الصورة كل قطرة من قطراتهِ سبب لوقاية حياتنا فهل تقدران على شربة منهُ بعد الاسراف والاتلاف. ام تظنان اننا على شاطئ بحر او ضفة نهر » وكنت مترصدة انهما تكفان ايديهما عن التبذير لكنهما هاجتا غيظًا وحددتا اعينهما الي وقالتا « يا للعجب نحن نتجادل في هذه الغرفة على قطرة ماء ودماء ابناء وطننا تجري في معابر دهلي كالسواقي »

ولا بد ان اذكر هنا ان هاتين المجروحتين اصبحتا في شدتنا هذه مزيدًا على وبالنا وضغثًا على ابالتنا لاتحباننا ابدًا بل كانتا في نفور طبع وبغض شديد منا وما ذنبنا الذي ارتكبناه الاّ اننا كنا وسيلة لنجاتهما وسببًا لحياتهما على انهُ كان محققًا لهما اننا لولا وصولنا البارحة وبذلنا الهمة في سبيلهما ما وجدتا برءًا من الموت الزؤام وان ما تغرب شمس ذلك اليوم الاّ وتكون شمس عمرهما افلةً زايلة ومع ذلك كانتا معنا في اشد تكبر لاسيما بعد ماعلمتا اننا من طبقة الزراعين فازدادت كبرياؤهما. كانت لزوجي مهارة في مداواة الجراحات فربط ساعد احداهما وكانت قد اشرفت على الموت ومن سعادتهما انهُ انسدت فوهة القرحة وانقطع اندفاق الدم الجاري منها الذي كان علة قوية لازهاق روحها. اما الاخرى فكانت في عينها اليمنى قرحة كبيرة ئئن من ألمها وظهر ان هذه التعيسة ستعيش معيوبة العين بعد مدة قصيرة. ونحن ما اردنا كتمان نسبنا واخفاء امرنا عندهما الا لاطلاعنا على اصليهما فما ظفرنا من ذلك بشيء يريح قلوبنا مع اني كنت اريد الاطلاع على حالهما بطريق الاجمال لاعلم من اي الطبقات هما. فشرعت الاطف ذلك الطفل واستميل فؤاده ليرتفع الحجاب عن وجه السر فقال انهُ ما رآهما قط الا هنا. ثم انكشف في اثناء الصحبة انهُ ابن ذلك القاضي الذي احرقهُ الهنود بمرأى منا وهو لا يعلم ان قد قتل ابوه وصار يتيماً بل يحسبهُ قد ذهب

الى محاربة الاشرار وينتظر عودتهُ . ثم زادنا بيانًا وقال « ماتت امي قبل وقوع هذه الواقعة بستة اشهر وكانت خالتي تربيني في حجر اشفاقها في تلك الدار الوحشة التي وجدتموني فيها » فعلمنا ان خالتهُ اعدت مجلس ضيافة لنسوان الانكليز ولما انعقد المجلس هجم الهنود عليهِ فالتجأت الاضياف نساءً واطفالاً الى ذلك السرداب والرجال قابلوا الاشرار في ساحة البيت ولتكاثر عددهم وتوافر مددهم غلبوا على الافرنجيين وقتلوهم باسرهم وحينئذٍ وقع بين هاتين الامرأتين نزاع فتشاجرتا وعلمنا ان في الكنانة نبالاً فقالت واحدة منهما للاخرى « اينها التعيسة لا تقدرين بعد هذا ان تدخلي المطبخ وتكوني طباخة بيدك المقطوعة » فاجابتها الاخرى « ذهب بصرك وهبط نجمك وقد فقدتِ احدى عينيك ولا تقدرين من بعد ان تقومي بالخدمة وتغمزي بحاجبك الى معشوقك » فعلمنا مع تكبرهما ان احداهما طباخة والاخرى خادمة . وفي اي حال انهما وقتئذٍ متساويتان في الشؤون والرتب ومع ما رايت من الخيلاء والغرور فيهما لم افهمهما اطلاعي على انهما ليستا من فرع اصيل وطبقة عالية لاني رأيت ذلك خارجًا من قاعدة الانسانية بل سلكت معهما طريق الحفاوة مبالغة في تنقد احوالهما على خلاف ما كانتا عليهِ . فما زلت ادار بهما حتى لانت طباعهما وشرعتا في الالفة والخدمة لي ولبنتي بقدر الامكان

وبعد ان لاحت انوار الصبح واضاءت جبهة الليل الحالك بشعاعها المتتابع وجدنا انفسنا في غرفة وسيعة مجصصة الجدران ورأينا ارضها قد فرشت بالرخام ووضعت المخدات المطرزة في زواياها . ان هذه الدار احسن الدور امنًا واستحكامًا وهدوًّا واطمئنانًا وكانت الثورة في اشتداد والجلبة مستمرة واصوات البنادق والمدافع مرتفعة نسمعها على التوالي من كل الجهات . لقد هجمت الكوارث والمصائب من امس على قلبي هجومًا لا يطيقهُ فرد من افراد البشر ولا يزنهُ ميزان . فتارة افحص سبب حدوث تلك السوانح واسلي خاطري بحيل خيالية واقول ان البلايا التي اصابتني الى الآن تعبير رؤياي واخرى اتصور انهُ عراني خلل في مخيلتي او علة في دماغي وان لا اصل لهذه الوقائع المشهودة وليست لها صور خارجية بل هي محض تصورات واني كرعت صبح الامس كرعة من كأس البنج كما يفعل الهنود وان ذلك نتيجتهُ اما زوجي فقد داخلهُ الانفعال من قعوده عندنا وبقي ساكتًا لا يتكلم يتمنى اللحوق بابناء

وطنهِ والحضور معهم في معركة القتال تارة يهمُّ بالخروج من هذا البيت وتارة يقبل على نفسهِ بالتأمل والفكرة وبعدان اطرق طويلاً رفع راسهُ وقال تسلية لنفسهِ « الآن حيث طلعت الشمس لم تبق قدرة للاشرار على اثارة الفتن ولا يتمكنون من المقاومة امام عساكر الانكليز وسينهزمون الى عصير يومنا هذا وسوف تنتظم دهلي والعساكر والقواد المتحصنون في بارودخانه يلمون شعثهم في اقرب وقت . ثم ان العساكر الهندية ما اشرعوا عوامل العصيان باجمعهم فان منهم جمهوراً كبيراً في ميرتهة لم يدخلوا دائرة الثورة وهم باقون تحت قوانين الانكليز يواظبون على حفظ مواثيقها العسكرية يتربصون الاتصال بالانكليز ليتحدوا معهم في قمع الثورة »

ثم شرع باظهار رأيهِ في نظام الهندوسياستهِ الآتية وقال « لو بنت انكلترة قواعد عساكرها الهندية على اساس متين وبنيان مستحكم وواظبت على تنظيمها ماوقعت بعد ذلك في مضيق الهرج والثورة » ليت شعري هل هذه عقيدة زوجي ام هي نفثة مصدورٍ يتكلم بها تسكيناً للوعتنا واطفاء نيران اضطرابنا ام هي كما بينتهُ آنفاً باق على قولهِ انه لادليل لهذه الثورة الاَّ تنور قلوب الجنود من استعمال الرصاصات الملوثة بدهن الخنزير او البقر ام هو قد خرف وابتلي بالصمم فلا يسمع الضوضاء والاصوات المرتفعة الهائلة حيث يصيح الاشرار ويطلبون حريتهم وخروجهم من تحت قوانين الانكليز بقوة اسلحتهم ام هو لا يعلم ان هذه الثورة ليست منحصرة بنقطة او نقطتين مثل ميرتهة ودهلي وانها قد شبت نيرانها في اصقاع الهند وكل انحائها واقطارها . ولا يعلم ان انكلترة لا تقدر على نسخ عوائد الهنود واستهلاك رسومهم وشرائعهم وانهُ لا يتأتى لها ان تتركهم تحت نفوذ عدة من امرائها مع تباين المذهب واختلاف المشارب وعدم توافق الاراء والعقائد

كلاَّ . ليس كذلك زوجي اذليس هو بضرير ولا باصم ولاهو بنصامم بل يرى ويسمع ويحيط بجملة المطالب وتفصيلها قد حلب الدهر اشطره وذاق حلوه ومره وعجم عوده وانما تعود هذه العادة واخذ حسن الظن مسلكاً نقليلاً لوحشتنا . ومن غرائب امالهِ ان يقول حينئذٍ « سينطفئُ لهيب الهياج وستعود ايام السلم ونكون على غاية ما يرام من السعادة ونأخذ الخسائر التي انفقت لنا عند تخريب بيتنا واغارة الاشرار عليهِ وجبر هذا الخسران من التكاليف على ذمة الحكومة على حسب القانون »

وفي اثناء الحديث وقد كنت اصدق اقوال زوجي في ظاهر الامر كان دويُّ المدافع يأتينا من غير انقطاع فرفع راسهُ واصاخ بسمعهِ ثم قال « الا تسمعين صوت المدفع ياتينا على غير حالتهِ المعهودة فاظن العساكر مذخرة من القنابل الصغار شيئًا كثيرًا والاصوات التي ترتفع بعد اطلاقهِ ثم تسكت بضع دقائق ثم يتجدد اطلاقهُ فيستتبعهُ انين كل ذلك دليل على ان المدافع تتلف اناسًا كثيرين في كل دفعة ويكون ذلك الدفع الموقت فاصلاً لحملاتهم فيؤخرهم عن الهجوم ثم يجتمعون ثانية . وانا اتصوَّر ان الجلبة تاتينا من قلعة سليم غوري » فاجبتهُ ليس الامر كما تظنهُ فان تلك القلعة الى يميننا والاصوات تاتينا من اليسار ويخالج خاطري ان هذه المحاربة عند درب كلكوتا او في ميدان بارودخانة فاصاخ برهة وقال « علمت ان مدفعية ميرتهة المتحدة معنا تجاوزوا جسر جمنا وبدأت المقاتلة من خلف الاشرار ووقع الطغاة ان شاء الله بين مهلكتين وما تمضي برهة الاَّ وينكصون على اعقابهم وستضع الحرب اوزارها وتنجلي غبارها ونعود الى دارنا ونجد فيها ابننا مع دايتهِ » فقلت نعم لو شاء الله فعل . فمضت على ذلك عدة دقائق وما سمعنا صوت بندقية ولا مدفع قط . ثم سمعنا صوت مدفع واحد تبعتهُ اصوات البشاشة التي كانت علامة للفتح والغلبة . فتحير زوجي وقال يا ترى ما الذي وقع هل خلت عساكر انكلترا مستودع البارود فتصرف الهنود في هذا الموضع ايضًا . ولما ذكرنا اسم بارودخانة قامت آلن وقبضت على ساعدي بشدة وقالت ما قلتم عن بارودخانة . فاجبتها ببيان لطيف وقلت ان مذاكرتنا كانت مبنية على تحصن الانكليز في هاتهِ النقطة المساعدة لهم . فقالت ان كان الامر كذلك فلمَ لا نقصدها ولا نلحق بوليليام

الفصل الثالث عشر

﴿ احتراق بارود خانه ﴾

ما اتمت آلن كلامها واذا بصوت مهيب طرق سمعنا فخيل لنا ان الجبال اندكت وتمزقت الارض فتطايرت ارواحنا شعاعًا واكتسى بياض النهار اغبرارًا فيالهُ من

صوت ارتجت منهُ الآذان وانخزلت لهُ المتون . وانبعث في اثر هذا الصوت الهائل دوار في رأسنا فلم نستطع الجلوس فوقعنا على الارض وعلمنا ان مخزن البارود قد احترق ولا ادري كم طال ذهولنا الاَّ اني لما افقت شاهدت نفسي تحت الجص والتراب والروافد التي خرت من السقف لشدة التزلزل فعادت حالتنا الاولى رويداً رويداً وكانت بنتي ساقطة على الارض كانها ميتة فاخذناها ووضعناها على سرير والدمع ينهال من عيوننا . بادت ثروتنا وفقدنا ولدنا العزيز وبنتنا الآن في حالة الاحتضار. وخلاصة القول ان المؤرخين يثبتون اسماء الامراء العسكرية والقواد الذين ابدوا الاخلاص والبسالة في احراق هذا المخزن عند الاضطرار فبذلوا انفسهم بين لهيب النار ووقع السيف البتار لانها وقعة مهمة طفحت بذكرها غدران الصحف وسالت بخبرها الاقلام فلا حاجة بذكرى اسماء هؤلاء الليوث الاشداء الذين قتلوا انفسهم في الذب عن ناموسهم والحاماة عن حقوق دولتهم ووقاية حيثيتهم الا اني اذكر هنا ما سمعتهُ من احد الشجعان وكان شاهداً تلك الوقايع

قال الشاهد المومأ اليهِ « في اليوم الذي سمعتم فيهِ هذا الصوت المهيب كانت مدينة دهلي في تصرف الطغاة وانهزمت بقية العساكر التي كانت تحارب الاشرار في درب كابل وتبوَّأ سراج الدين محمد بهادر الكوركاني سرير الملك وكانوا مع ذلك يباشرون نهب الاموال وقتل النفوس . فاجتمعت اعاظم القوَّاد مع فرقة مدفعية وطابور من مشاة عساكر الانكليز في بارود خانه وتحصنوا فيهِ وتعاهدوا ان يواظبوا على حراسة ذلك الاستحكام ولا يسلموه للاعداء بالاختيار . وكانوا ينتظرون ورود فرقة انكليزية لمعاونتهم (وكان صهري ويليام معهم) ثم انتخبوا من بينهم قائداً اسنَّ فوضوا لهُ رئاستهم في هذه الملحمة العظيمة ولم يبق لهم امل ببقاء الاَّ بقاء شرف البسالة

« وبناء على التجارب التي عاناها هؤلاء القوَّاد في مدة اقامتهم الطويلة في الهند كانوا يعلمون ان الاهالي لهم جرأة ومهارة في اقتحام معارك الحروب يحسنون الحملة الاولى فاذا انهزم عدوهم فازوا هم بامانيهم وان صدَّهم مانع قوي وتصادم عظيم انكسرت سورة صولتهم وتبخرت حرارة اقدامهم . فرأوا انهم لو تحصنوا في هذا المكان اربع وعشرين ساعة وعلمت بذلك القوَّاد والعساكر المقيمون في اطراف دهلي

فينسلون اليهم حينئذ من كل حدب ولا يتركون هذه العاصمة في تصرف الاعداء . ونظرًا للامنية التامة التي شاهدتها دولة انكلترة من الاهالي ايام استيلائها على الهند والطاعة والاستسلام اللذين رأتهما منهم ايام السلم ما اهتمت في سد خلال ذلك المخزن وترميمهِ كما يجب . وعلى الرجل الحازم العاقل ان لا يغتر بامنية موقتة ولا يطمئن لها . وعلى ارباب التجارب والامراء واكابر الدول ان يتدبروا ايام الصلح حالتهم الآتية ويلاحظوا المخاطرات المستقبلة . كم من خطوب عظيمة وحروب جسيمة لم تكن الدول تتوقعها ولا تترقب حدوثها فاتفقت بغتة واورثت نتايج وخيمة وخسائر خارجة عن نطاق التحمل . كما اصبح ذلك التساهل سببًا لغلبة الاشرار على بارود خانه . والخلاصة ان المتحصنين وضعوا امام استحكامهم مدفعين عيار (١٥ سنتيمتر) وامروا باطلاقهما ما دامت القنابل باقية . ولما تمت الذخائر دقوا هذين المدفعين على الارض بالاوتاد ودخلوا المخزن وابتدروا بالمقاتلة من داخل الحصار وعزموا على احراق البارود المخزون هنا عند الاضطرار لئلا يتمكن العدو من استخدامهِ ولاجراء هذا القصد اخرجوا مقدارًا كبيرًا من البارود ومدوا خطًا باروديًا من المستودع الى مجتمعهم وتناول زعيمهم ذلك القائد العجوز ذبالة مشتعلة ووقف على رأس الخط ليضعها عليهِ عند الحاجة . وفي اثناء ذلك ارسل اليهم سلطان دهلي رجلاً من خواصهِ يستميل افئدتهم ويعدهم الامان ان خلوا المخزن . فهدد الرئيس رسول السلطان وارغد وازبد حتى رجع على حافرتهِ وعند ذلك رفعوا اصواتهم ودعوا لدولة انكلترة والتمسوا سلامة ملكتها فيكتوريا . ولما يئس السلطان من الاستيلاء على المخزن امر جنوده بالحملات المتوالية . فازدحموا وتسلقوا جدرانهُ واشتدت المعركة وارتبك الامر وما اجدى اطلاق المدافع شيئًا ولما انقطعت حبال مقاومتهم طفق يودع بعضهم بعضًا ثم وضع رئيسهم النار على خط البارود فاحترق ذلك البناء المعظم مع من فيهِ وانفجرت اركانهُ وهلكوا جميعًا الا شخصين نجيا من هذه الداهية الدهياء وما كان خلاصهم الا من قبيل خرق العادة او الاعجاز »

ومجمل القول ان الفيلبان ظهر في منتصف النهار وقد لفظ الفيل لجامهُ واجهد النصب . وكان الجوع قد اضرَّ بنا فتلقيناه بالبشر والترحاب واظهرنا البشاشة في وجههِ وتحفزنا لاستقبالهِ اما واأسفي ان ذلك الارتياح لم يدم اكثر من دقيقة اذ وجدنا يديهِ خاليتين من الطعام فتبدَّل رجاؤنا باليأس وشاهدنا في وجههِ اثار

وحشة عظيمة فسألهُ زوجي ما الذي وقع بعد هل عندك خبر عن بارودخانة فما اجابهُ ولكنهُ اقترب من الكراسي والتخوت وكسر بعضها وبسط عليها البسط والانماط وقال قوموا واختفوا تحت تلك الاسرة بدون تعليل وتأخير فعزمنا على الاختفاء واذا بالفيلبان قد قرب من باب الغرفة وجعل يسترق السمع ثم قال عجلوا عجلوا انهم سيدخلون وكانت بنتي تئن على الدوام وتكرر اسم بارودخانه بصوت خافت فسددنا فمها بالعنف واختفينا تحت الاسرة . وهي ليست بمرتفعة عن سطح الارض اكثر من شبر فوقعنا على بطوننا بترتيب خاص فنضد محمد اثاث الغرفة والآنتها فوقنا لئلا يستدل الطغاة من رؤيتها على وجودنا تحتها ولم تمض طرفة عين من استتارنا الا ودخل اولئك الاشرار الى هذه الغرفة فسمعنا قعقعة اسلحتهم وكانوا يقولون باعلى صوتهم « الابقاء على الانكليز حرام » ولما رأوا خلو الغرفة غلب عليهم سكوت طويل فسمعنا وقتئذ صوت الفيلبان يقول لهم مستهزئًا بهم لم تصغوا لقولي وكفيتم انفسكم مؤونة التفتيش حين قلت لكم انهُ ليس هنا متنفس من هذا الجنس الخبيث فحملتم كلامي على التزوير وكذبتموني هل تحسبونني مسلمًا بعد هذا ام انتم في شك من ذلك وما كان قولي ناشئًا الا من صدق عقيدتي ويا حبذا لو كنا نجدهم ونشترك في اراقة دمائهم واحمد الله لانكم جئتم ورأيتم صدق قولي وارجو ان تعتقدوا بان مسلمي الهنود لا يفوهون بباطل وزور كسائر الملل وخصوصًا اذا اقسموا لانهم اذا كذبوا وقتًا من الاوقات على سبيل المصلحة فلا يكذبون اذا خافوا قط »

لا يسوغ للمطالع ان يبدي ملاحظة على ذلك القسم ولا ان يلوم الفيلبان فانهُ كان صادقًا في قولهِ وحلفهِ لانا كنا مختفين لا يرانا احد ومع ذلك فهم لم يعتمدوا على قولهِ وانتضوا سيوفهم وطفقوا يتفحصون تحت الاسرة باسنة بنادقهم مثل عمال الكمرك اذا ارادوا تفحص بعض الاحمال واموال التجارة والامتعة التي منع مرورها فاصابتني حينئذ ظبة سيف مزقت اهاب ساعدي فما تنفست من الخوف فاضطرب محمد وخاف ان لا نصبر وصاح قائلاً « رأيت هولاء الكلاب في ساحة الدار فعليكم بتعقبهم » ولما سمعوا خرجوا من الغرفة بعجلة وتبعهم الفيلبان واغلق الباب علينا وهو يقول « اهتموا يا اخواني عسانا ان نظفر بهم ونتوفق الى قتلهم ونستريح » فاخرجهم من البيت بهذه الحيلة ثم عاد وانقذنا من هذا الحبس الوقتي

الفصل الرابع عشر

﴿ الجوع ﴾

ولما اطمأنت خواطرنا وعاد الينا السكون اضطرمت فينا نار الجوع وقلنا لهُ ان سلمنا من آفة الثورة والشغب سنحترق بشواظ السغب ويفترسنا الجوع وقد انشب اظفاره في اعصابنا وعروقنا . ان كنت لا تستطيع الاتيان بالخبز والاطعمة فاتنا بشيء من الارز فانا اشرفنا على الهلاك . فاجابنا لا اقدر على تحصيل قوت لكم الا عند وقوع الظلمة فقد دعيت اليوم مرتين الى محكمة الاستنطاق وحاكموني من اجلكم اشد المحاكمة وقالوا انبئنا عن اربابك الذين كنت عندهم ابن تواروا وفي اي الزوايا اختفوا وان لم تنطق بصدق صلبناك فاجبتهم باني لا اعلم لهم مأمنًا كنت معهم في اول الهياج ورافقتهم الى درب دهلي ثم فارقتهم من ذلك الوقت ولا ادري الآن هل هم من الاحياء ام الاموات . وقد امر السلطان بالمنادي فنادى في الاسواق والمعابر بان يتجسس الاهالي مضايق الدور وشعابها وخاليها وآهلها ويتفحصوا كل مرداء وشجراء شبرًا شبرًا ويقتلوا من وجدوه وياتوا برؤسهم لأخذ الجوائز المعينة فجايزة رؤوس الرجال ثلاثمائة روبية ورؤوس النسوان مئتان وخمسون روبية والاطفال مئتا روبية

فتولانا من استماع هذا الخبر رعب شديد انهالت لهُ دموعنا وارتعشت ابداننا فندم الفيلبان من اظهار اطلاعاتهِ فاراد تسكين قلقنا وقال « لا تيأسوا لما سمعتموه ان الهنود وان تغلبوا على دهلي وقتلوا من فيها فهم لا يظفرون ببقية العساكر ومن الامور المسلمة انهم سيجتمعون ويدخلون دهلي بسطوة وبطش ويستعدون للانتقام واعلموا اني لا افارقكم ما دمت في قيد الحياة الاَّ ان اقتل وصاحب هذا البيت علي من احبائي وهو يعلم سرًا انكم في بيتهِ لكنهُ لا يسعى في اظهار ذلك حسب المعاهدة وهو يتجاهل ويرى اكرامكم من فرائض الانسانية وقد لاقاني صباح هذا اليوم وقال اني آويت اربابك الى هذا الحين وبالنظر الى المودة القائمة بيني وبينك . اذنت لهم ان يختفوا في بيتي الى انقضاء ثماني واربعين ساعة ثم لا اقدر على ايوائهم اكثر من ذلك

فابحث لهم عن مأمن آخر . واقول لكم لا تخافوا ارجوان اعين لكم مأمنًا احسن من هذا » ذهب الفيلبان وقرب البوم من الاختتام وجنحت الشمس للغروب فمدّ الظلام رواقهُ ونحن في اضطراب لايحد وقلاقل لاتعد

اما آلن فقد سقطت من الصبح ولا تزال الى الآن كانها ميتة لا تتكلم ولا تتحرك ابدًا ولكنها تئن وتقول بصوتها الضئيل احترق بارود خانه . اما هذا الطفل فقد تغشاه الكرى . وهاتان الامرأتان كانتا غريقتين في بحر الانين من عارضة الحمى التي نشأت من كثرة الجراح . وانا وزوجي كنا في أسوإ الاحوال فانهُ كان يخطر في الغرفة وهو يحسب المشي كما يكون داعيًا لزيادة شهوة الطعام في اوقات السعادة يمكن ان يكون سببًا لسد الجوع عند التعاسة وسوء البخت

اما انا فلم اكن فيلسوفة كزوجي فقد كان بطني طاويًا وراسي عاريًا فتارة استلقي واخرى اتناوم واتذكر ابني واتحسر على فقدي اياه فاضرّت بي سورة الجوع بحيث نسيت شمائل ابني وامحى شكلها من لوح خاطري وكلما اردت تصور صورتهِ ما تمكنت منهُ . نعم ان خصال الانسانية وخصائص البشرية والقوى المدركة تجاور البشر وتلازم الدماغ الى وقت محدود ومدة معينة على ان لايكون الانسان مهجورًا من حاجياتهِ الضرورية ومقتضياتهِ الحتمية اما اذا مسهُ ضرٌّ وابتلي ببلية فتزول حواسهُ الباطنية ويرتكب انواع الرذائل ويخرج عن ذاتيتهِ وينتزع من جنسيتهِ فاذا فاتهُ طعام يومهِ اولم يقدر على استيفاء نومهِ نسي عشيرتهُ واقوامهُ . واقرباءهُ وارحامهُ . ينكر صميمهُ وحميمهُ ويجفو سميرهُ ونديهُ . ويقول بعضهم ان المحتضر يبكي في حالة اغمائهِ وغشوتهِ ويعتقدون ان بكاءهُ لمفارقة الاحباب والتعلقات الدنيوية . فان ذلك ليس عندي بشيء مقبول وان كان لم يرجع احد من الاموات ليخبرنا من عالم الاحتضار فنطلع على كيفية افتراق الارواح من الابدان ونقف على سبب هذا البكاء لكن عقيدتي ان بكاء المحتضر ليس من قبيل تأثر النفساني على قطع علائق نفسهِ الصعبة بل هو يبكي على نفسهِ عند حلولهِ في رمسهِ لانهُ ذاهب من عالم نوراني الى عالم ظلماني ولا يعلم ما يأتي عليهِ هناك

ويخطر ببالي اني قمت من مقامي وقتئذٍ وشهقت شهقة ووقعت معشيًا عليّ واظن اني تحفزت للقيام فارتعدت رجلي وحصل في راسي دوار فسقطت فجاء زوجي وقعد

عندي ووضع راسي على ركبتهِ وكان ينظر اليَّ بملامح الحسرة وما زال يلاطفني حتى افقت من سقوط قطرات دموعهِ على وجهي والجوع على حالتهِ الاولى فقوتني حفاوتهُ . ولما رآني بهذه الحالة نادى باعلى صوتهِ ابن انت يا محمد لم لا تجيء . ثم ادخل يديه في جيبه واخرج منهُ ذهبًا كثيرًا وقام يتردد في الغرفة تردد باز قصَّت اجنحتهُ او اسد غضبان لا يقدر على الخروج من عرينهِ يصيح و يقول من يأتني بكف من ارز اعطيتهُ هذه الليرات . فلما اضطر فتح باب الغرفة وخرج الى القاعة فناديتهُ ابن تذهب وقمت لامنعهُ من قصدهِ فما مشيت بضع اقدام الاَّ وسقطتُ من الضعف . وما طالت مدة خروجه عن ست دقائق لكني تصورتها اطول من ست سنين فلما دخل رأيتهُ قد عطف ذيل ثوبهِ وهو مملوء من البورتقان والاثمار الهندية فوضعها عندي وقال لا تقعدي في حالة الانتظار اكثر من هذا واصرفي شيئًا ما حضر عسى ان ينسد جوعك . اما انا فلم اكن مستحقة لهذه الضيافة وحدي فان للاخرين ايضًا حقًا فيه فدعوت تينك الضعيفتين للاكل فاجابتا . وما قبلت آلن اكل شيء ابدًا وكان الطفل نائمًا فحفظنا حصتهُ وتعشينا بتلك الفواكه و بتنا حتى انتشرت اعلام الصبح في اقطار الافق فما جاء محمد هذا اليوم الى ان مضت الساعات وحان الميقات

ابن الفيلبان يا ترى ابن ذلك الرجل الوفي هل هو محبوس ام عارضهُ معارض لاجلنا ام حدثت حادثة منعتهُ من مجيئه . كانت وساوسنا تزداد شيئًا بعد شيء حتى غرقت الآفاق في امواج الظلمة فنهض زوجي لتحصيل الفاكهة واحضر مقدارًا كثيرًا من الاثمار مع عدة حبوب فرتقنا بها فتق الجوع وسددنا ثلمتهُ وهذا الطفل ابى اكل الفاكهة وطلب منا الارز المطبوخ فوعدتهُ بتحصيل مطلوبهِ في اليوم الآتي فسكت واستمر في نومه . ما رأيت في مدة عمري طفلاً حريصًا على النوم مثلهُ فانهُ نام ثلاثة ايام على الاتصال . وبعد هذا نام زوجي ونامت الامرأتان الاَّ انا فاني حاولت النوم مرارًا فلم اقدر كاني على شوك القتاد وكنت اسمع خشخشة اثواب آلن حين قيامها وقعودها فعلمت ايضًا انها سهرانة مثلي

انا و بنتي كنا مبتليتين بالوساوس الباطلة اما هي فقد كانت تتصور الحالة الحالية واما انا فكنت اتصور مآل الامر ومنتهى العمل . اسلي نفسي بان عساكر الانكليز

فتحوا دهلي وقرروا فيها نظامها السابق ونحن مشتغلون بترميم عمارتنا وتعميرها وصهري نال الجوائز والوسامات لاجل الشجاعة التي ابرزها في المحاربات وانا اتممنا امر تزويج آلن باحتفال شائق واني قعدت مع زوجي وطفلي ويل في باخرة انكليزية لنذهب الى لوندره ونريد بعد الوصول ان نضع ولدنا العزيز في احدى المكاتب الاعدادية ليشتغل بقراءة مبادىء العلم ثم نرسله الى المكاتب الفنية لتعلم الصنائع والمعارف . والخلاصة اني كنت غريقة في لجج هذه الامال اتصور سعادتي الموهومة حتى مضى هزيع من الليل

واذا بصوت خفيف سمعتهُ من ساحة الدار فاصختُ فسمعتهُ آتيًا من الباب فلم اقدر على الجواب فتكرر دق الباب ثم فتح بعد حركة قليلة وطرق الطارق فما سمعت الا وقع الاقدام فوق رمال القاعة بيّن للسامع تعدد القادمين فقربوا منا حتى وصلوا باب الغرفة وقرعوه بسكون وخفة فقلت لزوجي ما العمل حينئذ فقال لا بد من فتح الباب فان هؤلاء القادمين لو كانوا من الاشرار ما دخلوا الدار بهذه الخفة والسكينة ففتحنا الباب واذا بهنديتين قد تلفعتا بلفاع ابيض واسدلتا القناع دخلتا الغرفة ثم جلست واحدة منهما في وسط الغرفة واخرجت من تحت ابطها سلة من السلال المعدة لوضع الالبسة واخرجت منها ملحفة من الملاحف التي تلتحف بها نساء الهنود عند خروجهن من البيوت وقالت لنا قوموا والتحفوا بالملاحف وارتدوا بها فوق ثيابكم واتبعوني فسألها زوجي الى اين نتبعك قالت الى المحل الذي ينتظركم محمد الفيلبان فيهِ . فلما سمعنا اسمهُ زالت وحشتنا فقمنا والتحفنا بها وقفونا اثرهما وما زلنا نمشي حتى بلغنا الجادة الكبيرة الواقعة في وسط دهلي فوجدنا ترابها مضمخًا بالدماء بحيث لا تقدر الرياح الهوج عند هبوبها على اثارة ذرة منهُ وما رأينا في طول طريقنا الا غربانًا ونسورًا تقع على جثث القتلى وتشتغل باكلها واختطاف الامعاء والاحشاء منها . وكلابًا نست من كثرة الاطعمة قوة البخل والمنازعة واتفقت مع امثالها بكمال الالفة في تقسيم الاجساد . وشاهدنا ابناء وطننا كغثاء طافٍ على سيل جارفٍ او كرماد اشتدت بهِ الريح في يوم عاصف

كنا مجدين في السير حتى رقت حاشية الظلماء واوشك صبغ الليل ان يحول فخرجت الاهالي من منازلهم وانتشروا لاداء الصلاة ولقيام العبادات مثنى وثلاث

ورباع وكان مسلمو الاهالد وعبدة الاوثان يقصدون نهر جمنا للاغتسال والتطهير وما كانت الفرقتان ملتفتتين الينا وقصدهما بعد اداء الفرايض ان يتقلدوا اسلحتهم ثانيةً و يتفقدوا المساكن والمعاهد والزوايا والمشاهد · ليقتلوا الذين يظفرون بهم من الافرنج

الفصل الخامس عشر

﴿ المرور من امام المسجد ﴾

وكانت دليلتنا تقول عجلوا وما زلنا نسري حتى وصلنا الى شجرة عظيمة الساق قد احاطت اغصانها بقاعة بنيت في وسطها واظلت ما تحتها وشاهدنا جمعًا كثيرًا من الهنود والحرّاس قد جلسوا امام مسجد في محاذاة هذه الشجرة الضخمة · وعلينا الآن ان نعبر من بحبوحة هذا الجمع فان الطريق منحصر هناك والعبور مستحيل من بين الف نفر من غيران يعرفونا · فقلنا لنمكث هنا حتى يتحرك الفوج (الفرقة) من مكانهِ ونمرّ سالمين فقالت الهندية « التجأ امس عدة من ابناء وطنكم الى هذا المسجد فحاصروهم في هذا المقام الى العصر حتى ظفروا بهم وقتلوهم وكانوا يريدون الذهاب الى درب كابل بعد طلوع الشمس للمقاتلة مع بقايا الانكليز المجتمعين هناك »

فيا لشناعة الامر واشتداد الخطب قد نقاص الليل ونحن في هذه الحالة ثيابنا قصيرة جدًّا لا تستر اقدامنا والاشرار يعرفوننا بمجرد رؤية الالبسة الافرنجية · وفي اي حال التجأنا الى ساق هذه الشجرة ننتظر وقوع القضا · فالتفتُّ بعد مرور بضع دقائق الى الكساء الابيض الذي على رأسي فاذا هو قد احمرّ من تقاطر الدم · من اين تتقاطر الدماء يا ترى ليس عضو من اعضائي مجروحًا ينزف منهُ الدم على ملحفتي · ثم فهمت ان الدم يتقطر من فوق رأسي فرفعت رأسي ورأيت رؤوس الانكليز معلقة على اغصان تلك الشجرة تتشحب دمًا · فتنهدت من مقامي بضع اقدام عسى ان ينقطع ترشح الدم فلم يجدِ ذلك نفعًا لان الاغصان كانت كلها حاملة رؤوسًا واجسادًا · وقد بلغني بعد ذلك

ان نادرشاه الفارسي غزا تلك البلاد منذ ١١٩ سنة وزحف على الهند بجيش جرار فتغلب عليها وقتل امراء محمد شاه سلطان دهلي وعلق رؤوسهم باغصان تلك الشجرة

فما بقيت لنا حالة سكون وقد زلت اقدامنا وارتعشت ابداننا من هول هذا المنظر. وفي اثناء ذلك نفخ الاشرار بالابواق وضربوا طبول المسير فلم يكن كلمح البصر حتى تحركوا الى درب كابل وخلوا الطريق للعابر. ولما خلت الجادة اخذنا طريقنا وانطلقنا وبعد برهة دخلنا زقاقاً في غاية السكون وبعد ان قطعنا مسافة مررنا بمخازن حطب فسألت زوجي الهندية هل نتوقف هنا فما اجابتهُ ولكنها انحنت وتناولت حزمة من الاخشاب المطروحة في ذلك الموضع فظهر زقاق آخر فاشارت بالدخول فدخلنا ومشينا طويلاً بمشقة كثيرة في هذا الطريق الضيق المظلم بما فيهِ من الحفر التي كانت تعيق مشينا وتصعبهُ حتى دخلنا سقيفة كهوّة العقاب مضيئة بمشاعل من خشب وهذا الخشب خاص في الهند بالاستضاءة بما فيهِ من المادة الدهنية التي تتوقد كالشمعة وكان الدخان المتصاعد من هذا المصباح الخشبي قد اظلم الفضاء اكثر من انارتهِ. وما استفاد اهل هذه السقيفة من دخولنا عليهم لانهم استقبلونا بالانين والحنين وتلقونا بالاشمئزاز فتبادلنا واياهم كليمات انكليزية كانت سبباً لسكون خواطرنا. واستأنسنا من النفار حيث علمنا ان المختفين في هذه الزاوية الهائلة ايضاً مثلنا في الابتلاء بالبلايا. ثم اطلعوا على حالنا واننا التجأنا الى مأمنهم خوفاً من السيوف البواتر المسلولة لاراقة دمائنا. وكان هؤلاء الجماعة المجتمعون هنا كلهم من الانكليز اجارهم في هذا الموضع رجل من المجوس ترحماً لهم ورعاية لحقوق الانسانية مع المخاطرات التي تصيبهُ من ابوائهم اذا اطلع الهنود على ذلك وهاته السقيفة واقعة خلف بيتهِ. اما هؤلاء التعساء الملتجئون الى هذا المأمن فقد كانوا حفاة الرؤوس عراة الابدان كانهم زجوا في اعماق السجون وهم اكثر من عشرين نفراً. وشاهدت بين النسوان امرأة في حجرها طفل رضيع ترضعهُ فجلست بجنبها وتذكرت ابني عند رؤيتهِ وتاوهت تأوهاً شديداً بنهاية التحسر والتلهف وقلت ما على زماني لو جمع بيني وبين قرة عيني ومهجة فؤادي فنظرت هذه الضعيفة في وجهي وقالت «ما هذا التنهد الذي يدل على تاثر في النفس عظيم هل قتل ابنك ام فقدتهِ لمَ تنظرين الى طفلي متحسرة»

فما قدرت على اجابتها ثم جلست بنتي مع هذا الطفل عندي وجلست تانك

الضعيفتان في زاوية من الزوايا فقرّ بنا القرار الاّ زوجي فانهُ كان قائمًا في وسط الفضاء مطرقًا برأسهِ الى الارض كانهُ ارتكب جناية فاستحق التاديب اوتصدى لامر فظيع يمسح جبين الخجل لاجلهِ . وكان انفعالهُ لاختفائهِ عندنا وهو يريد اللحاق برجال انكلترة للمشاركة في القتال وكنت افحص اطراف السقيفة المظلمة واوقظ الاطفال النائمة لعلي اجد طفلي هناك وما زلت على ذلك حتى اتيت عليهم واحدًا بعد واحد وما وقعت منهُ على عين ولا أثر . وحينئذ وجدنا واحدة من الخواتين الانكليزية كانت لها نسبة مع اقرباء هذا الطفل الذي كان عندنا فعرفتهُ وتعهدت محافظتهُ وخلصتنا من قيد حراستهِ ووجدت تانك الضعيفتان نسوة من رفيقاتهما فاتصلنا بهما وما ودعنانا حين المفارقة

ما اصدق الحكماء في قولهم حيث قالوا « الانسان يبتلي بالكبر والخيلاء في وقتين من الاوقات . وفي حالتين من الحالات . الاولى حين يرفل في نيل المنى . ويميس في ذيل الغنى . والثاني حين يكابد النوائب . ويعالج سكرات المصايب » فاعتراني من هذه المفارقة ارتياح ووحدة ووجدت في هذه الوحدة طمأنينة لاننا نحمل بعد ذلك اعباء مصائبنا الخصوصية ولا نتحمل مشقات الآخرين وتكون تدابيرنا مصروفة الى انقاذ نفوسنا من لجج البلايا ولا تكون غصص الناس زايدة على همومنا فنتفرّغ للتخلص من حضيض تعاستنا الحاضرة ودفع صدماتنا الآتية

رأيت في احدى الزوايا شيئًا كثيرًا من النباتات اليابسة والعلف فاتكأت عليها فكانت مضجعًا رطبًا احسن للاستراحة من التخوت التي كانت في بيت ذلك المسلم الهندي صاحبنا بالامس . ما اهنأ هذه الفرصة واحلاها لو دامت خالية من الاضطراب ولكن خواطرنا استجمت من القلق وقتيًا ونحن نفكر في امر الفيلبان ونجيل قداح الافكار في علة غيابهِ وسبب مفارقتهِ فان آمالنا كانت مرتبطة بارادتهِ منوطة برأيهِ وتزداد حسراتنا لحة بعد لحة من فقدنا العزيز فاظهرت لزوجي قلقي على محمد فقال وهو يريد اسكاتي « اعلمي ان هاتين الهنديتين جائتا معنا الى هذا المكان ولما اطمئنتا من مامننا رجعتا لتخبرا محمدًا بحضورنا هنا وسيجيء بعد برهة وتقر عيوننا بملاقاتهِ »

الفصل السادس عشر

﴿ ضرورة الترتيب في الاعمال ﴾

وعلى الانسان ان يشكر احسان المحسن الذي يفقد احوالهُ عند نزول الملمات وحدوث النائبات . هذا الرجل المجوسي الذي حقن دماءنا خدمه للعالم الانساني وحفظنا من التهلكة كان يطعم اضيافهُ في كل يوم وليلة مرتين وكانت خدمتهُ ناتينا بقدرين من الارز المطبوخ واللحم المشوي وثلاث اوان كبيرة مملوءة بالماء وبمجرد وضعها على الارض كان رفقاؤنا يهجمون على الطعام فيدخلون ايديهم في القدور الى المرافق ويبلعون العظم واللحم كائنًا ما كان من شدة الجوع وسورتهِ وكانت فعلتهم هذه داعية الى الاجحاف وعدم الانصاف فلما شاهد زوجي هذه الفاعدة القبيحة قام حينئذ منتصبًا وقال « كما ان الترتيب في الامور البشرية من اللوازم الضرورية في السعادة واوقات الرفاهية فهو ايضًا من اهم اللوازم في الذل والمسكنة والناس محتاجون الى النظام في حالتي الشدة والرخاء والمتمدنون لا يتركون رسوم الاداب وشؤون التربية سواء كانوا في ذروة جبال الاقبال او مصفدين في الاغلال . يراعون شروط المؤاخاة والمواساة . وينسون الظلم والمعاداة . وانتم ايها الحاضرون لكل واحد منكم حق معين في هذا الطعام وكلكم في هذا المأكول والمشروب مسيوُّون . فليكن واحد منا رئيسًا يقسم الاطعمة ويفرقها فياخذ كل ذي حق حقهُ ويعتدل الامر »

فسبوا زوجي بكل شفة ولسان الاَّ جماعة ولكنهم اقاموه رئيسًا فانتفى قطعتين من عيدان الشجر واخرج سكينة وجعل واحدًا منهما محدد الرأس كالشوكة والثاني شبيهًا بالملعقة واستعان بهما على مقصوده . كان يخرج الارز من القدر ويضعهُ في أكفّ الحضّار التي كانت بمنزلة الاواني ثم يخرج اللحم ويضعهُ فوق الارز بترتيب . طال تعيشنا على هذه الصورة ثلاثة ايام . وعمل زوجي وان كان لم يوافق اراء الحاضرين في اول الامر لكن استحسنهُ الجميع في اليوم الثاني والثالث . وذلك شأن قوانين العدالة فانها يصعب اجراؤها في اول الامر وتأنف النفوس قبولها

في مبادي نشرها لكنها اذا اجريت وسلكت طريقها لا تنقضي برهة الاّ وتأتي بثمرات حلوة ونتائج حسنة ينتفع الناس بها وتقبلها الطبائع بارتياح والقانون رائد الامم ومصباح نهاها . وقد احدث ذلك بيننا وبين اولئك الرفاق نوعًا من الانس والالفة وفتح طريق الارتباط والاختلاط وانحلت عقد الكروب عن القلوب فاحكى كل منا حكايتهُ لصاحبهِ بحرقة قلب وتوجع فما كان في هذا الجمع رجل او امرأة لم تصبها سانحة من السوانح . فان الثورة حين اشتدادها في اليوم الحادي عشر والثاني عشر تمكنت من هؤلاء التعساء فذهبت بابائهم وازواجهم وابنائهم واذاقتهم من الفظائع شيئًا كثيرًا . ومن الغرائب ان اكثر المجتمعين هنا نسوان وما كان فيهم الاّ رجال قليلون فسألناهن عن ذلك فقلن ان محتسب دهلي دخل هذا الموضع قبل وصولنا بساعتين واخرج الرجال وقتلهم وابقى عليهن وما كان ابقاؤُه هذا من ترحمهِ ومروءتهِ لانهُ كان من المدبرين ودهاة العمال فما ابقى على اولئك التعيسات الاّ للانتفاع منهن ليأخذ فدية مهمة من الانكليز عند رد زوجاتهم وبناتهم بعد المصالحة وهذا هو السبب الاصلي لعملهِ

وبناء على ذلك علمنا ان نيران الفتنة خمدت بعد اضطرامها اوشرعت في الانطفاء قليلاً من اليوم الخامس عشر والسادس عشر . وكان الهنود لا يباشرون قتل النساء ولا يتعرضون لهن واغلب هؤلاء النسوان من اللواتي قتل ازواجهن بسيوف الاشرار واطلقهنّ الهنود من غير ان يلحق بهن ضرر وفي اعتقادي ان الموت اهنأُ من حياة على هذه الصورة وان الاشرار ما ابقوا على نفوسهن الاّ تكميلاً للمصيبة ليمحن ويندبن مدى عمرهن ولو قتلن لكان اروح لهن

اما الرجال الذين أُخرجوا من هذا المكان وقتلوا فاليك شرح حالهم . لما اخذهم المحتسب ذهب بهم الى عمارة عالية من ابنية السلاطين الكوركانية على شكل محكمة عسكرية واستنطقهم على الاختصار ثم حكم بصلبهم بعد ان اقام عليهم الحجة واطلعنا بعد هذا على اعلانٍ نشرهُ ذلك الشقي مضمونهُ « لما تبوّأ سلطاننا المقتدر المعظم سرير الملك وجلس على تخت اجداده العظام المعروف بتخت طاوس بعد دفع الانكليز ورفع اشقياء الافرنج صدرت احكامهُ العالية من مصدر الجلالة الشاهانية بان لا يقتل احد نفسًا من الانكليز ولا يشن رعاياه الغارة على اموالهم بل يحافظوا

على اغراضهم وصدور الاحكام بعد هذا التاريخ منوط بالاستنطاق · مربوط بحبال العدالة بريء من الاعتساف » ومن الحوادث التي سمعتها اليوم ان جمعاً من اعاظم الرجال التجأوا الى عمارة السلطان في اليوم الثاني عشر فلم يقتلوا على الفور دليلاً يحمل ذلك على عدم النظام فاحضروهم في محكمة الجناية ورتبوا مجلس شورى عسكرية واستنطقوهم وانتقدوا عليهم انتقاداً عنيفاً ثم امروا بقتلهم جميعاً · اما هذا السلطان الوقتي الذي يناهز عمره الثانية والتسعين فقد كان اسماً بلا رسم وكانت السلطنة مخصوصة بابنهِ المسمى ميرزا مغول وكان غشوماً سفاكاً محباً لاقتحام الحروب والمغازي · وهذا المحتسب من الهنود نصبتهُ دولة انكلترة لهذه الخدمة فعند وقوع الثورة تواطأ وابناء وطنهِ على زيادة الاستبداد · وكان يخرج بحكم الميرزا مغول الى المتوارين في الزوايا ويعرض عليهم الاسلام فاذا قبلوا نجوا واذا احجموا قتلوا · ونذكر بملء الاسف ان عدداً غفيراً من ابناء وطننا قبلوا هذا التغيير ودخلوا حوزة الاسلام وبدلوا دينهم القديم · ولو بقوا على طريقتهم غير خائفين من الموت لارتفعت منزلتهم عند طلاب الحقائق

اقمنا في هذا الموضع خمسة ايام متوالية وازدادت تعاستنا من وسخ الابدان وعفونة الهواء وعظمت مصايبنا من تحمل هذا البلاء العظيم في هذه السقيفة الجهنمية وتسلطت على ثيابنا البلى من حرارتها المحتبسة بحيث كانت تتمزق وتسقط فيا لها من هوة ما اضيقها واحرجها وورطة ما اصعبها واشقها · وكانت عندنا نقود كثيرة فاردنا ان نعرض على الخدمة قدراً منها لابتياع ملابس تستر ابداننا العارية ولم نجترئ على اظهار ذلك خوفاً من ان يطمعوا في اختلاس الوجوه فيقتلونا · هذا وزادت مسرتي من جهة بنتي آلن لانها خرجت من سكوتها الدائم ونومها العميق وحصلت لها افاقة من حالة الخمود بامداد القوى الغريزية وشرعت تبكي وتذكر زوجها فشكرت الله تعالى لانهُ نجى بنتي من خطر الهلاك والاختناق والموت بعارضة السكتة وأخذنا مع ذلك نتفكر في طريق الخلاص من تلك الهوة باتفاق ارائنا ودلالة عقولنا · والذي اقول هنا في حق هذه البنت ليس من جهة علاقة الامهات بالاولاد ووفور الحب القلبي الذي جبلتُ عليهِ في حقها ولا مما اشتهر في الامثال ان حب الشيء يعمي ويصم ولكننا لو تأملنا تأملاً دقيقاً مع الانصاف لوجدناها

مع حداثة سنها ذكية داهية واسعة الصدر جريئة في التدبير عند الابتلاء بالحوادث ماهرة في القيام بفرائض التخلص بحزم وامضاء عزم . ولولا انها كانت مبتلية بمكابدة شدائد النوائب وتحمل اعباء مفارقة زوجها لاجالت قداح التدبير في انقاذنا . كما انها لما فرغت من البكاء والتأم صدع قلبها وسكن اضطرابها الداخلي ابتدأت بالمشاورة معي ومع ابيها في الفرار فتضاربت اراؤنا في هذا الباب لصعوبة موضوعه واهميته

فقالت « ان الاليق بنا الترحال من هذه الزاوية المكتنفة بالاخطار اذ لا ثقة بما اقدم عليه البعض من الظنون والحسبان ولا يبعد ان يدخل المحنسب هنا مرة اخرى وان سلمنا نحن النسوان لا يسلم ابي بل يقتل مع هؤلاء الرجال وما كل مرة تسلم الجرة وقد قيل لا تسلم نفسك للتهلكة وانت قادر على انقاذها ولنا ان نتأهب للفرار بوسيلة » . فقال زوجي « انا من الامس الى الآن ما زلت افكر في ذلك وقد تطابقت عقيدة بنتي مع عقيدتي واني عازم على الفرار متى ارخى الليل سدوله واذهب الى دارنا المخروبة وانا على يقين ان الاهالي ما تركوا فيها شيئاً يصلح لسد احتياجنا ومع ذلك يحتمل ان الفى شيئاً من لوازم المعيشة واسافر من دهلي الى مدينة اكبراباد باي طريق كان » . فاجابته آلن « هذا راي صائب لا يرد عليه قط لكن ما الداعي للمفارقة بيننا هل يترتب على اتفاقنا في السفر ضرر » فرأيت رايها صواباً وقلت « لقد نطقت آلن بما فيه صلاح حالنا ونجاح قصدنا اي سبب يدعو الى سفرك وحدك بل نحن نوافقك في السبيل ونرافقك في السراء والضراء فاذا كان الطريق خالياً من المخاوف عبرناه سالمين وان ابتلينا بحادثة كنا في موضع واحد وذلك احسن من تفرقنا وبقائنا في ورطة الانتظار »

الفصل السابع عشر

﴿ موت الفيلبان ﴾

قال زوجي واظن الفيلبان ذهب الى دارنا ينتظر رجوعنا وقالت آلن

من اين علمتم ان و يليام ليس فيها وقد رأيت البارحة في نومي ما يدل تعبيره على اننا سنلتقي به وانني سأتمتع برؤيته عن قريب واسأله تعالى ان يكون ما رأيته خيرًا . فقلت اذا كان بناء الامر على التفاؤل والاستبشار بالخيال فلمَ لا اتفاءل بمستقبل ايامي انا ايضًا واتصور ان ابني فيها وانني ساتيمن بهلال محياه . وخلاصة الكلام انا سكتنا خوفًا من اطلاع الحاضرين على مقاصدنا وفوضنا امرنا الى التقدير وجلسنا ننتظر ما تلد ليلتنا الحبلى بانواع المصائب . فما انقضت على ذلك ساعة الاَّ وظهرت الهندية التي دلتنا على هذا المكان فقمت من مجلسي وقبضت على ساعدها وسألتها هل عندك خبر عن الفيلبان اين هو . والعادة في اولئك الهنديات اللواتي يخدمن الانكليز ان يتعلمن عدة كلمات من اللغة الانكليزية لبيان المطلب الضروري اثناء المعاشرة لكنهن اذا اتفق لهن كلام طويل او وقعن في بيان مهم لا يقدرن على تادية المراد وشرح المقصود . فاشارت الهندية بيديها ان الاشرار سلبوا الفيلبان وقتلوه . ما اغرب حالة الانسان وما اعجبها فان المرء يطلب سلامة نفسه في اوقات الادبار اكثر من اوقات السعادة واني اقول ذلك مع غاية الخجل اني تألمت من موت هذا الرجل بقدر تألمي من النتيجة التي ترتبت على ذلك . فان هذا الرجل الصديق اوفى بعهوده وراعى حقوق النعمة وشروط الوفاء والقى نفسه لاجلنا في الموارد الهائلة حتى ادركه الاجل المحتوم واستوفى مداه المعلوم

اما الآن فلا يجدي التأسف والتحسر نفعًا وقد صار عدمًا لا ينفع . وفي اثناء ذلك نظرت الهندية الى ما حولها واومأت ان نتبعها في الخروج بدون توقف او توان فخرجنا معها من مدخل ذلك الزقاق المظلم ودخلنا الشارع العام وفارقنا بهذا الوضع رفقاءنا القدماء واعترتني من تلك المفارقة غصة باطنية تاثرت منها . لكننا كنا مجبورين ان نفارقهم اذ لا يجوز لاحد ان يطلع رفيقه على قصده في هذه الحالة . تصوروا ايها المطالعون سفينة تقاذفتها الامواج وهي تمخر في وسط بحر هائج هبت عليها ريح عاصفة مزقت شراعها وانخرقت اجزاؤها والطوفان يزداد شيئًا فشيئًا حتى اصبحت على وشك الغرق يحدر بسكانها الموج الى مهاوي البلايا ويديرها نوتي ضعيف عجز عن انقاذها . وهي مع ذلك محاطة بكثير من سفن الاعداء القوية فلا تعلم كيف تخرج من المخاطر سالمة . وقد انحصرت طرق الفرار

بزورق صغير لا يسع اكثر من ثلاثة اشخاص الى ساحل النجاة . وهل يمكن والحالة هذه ان يلاحظ احد حقوق الانسانية ويراعي مراسم التمدن والمروءة . ان للمسافرين ان يعجلوا في ركوب الزورق لينجوا بنفوسهم باي تدبير كان ومن تقدم وتفوّق كان اعقلهم . هذه حالتنا التي تشاهدونها ولو اطلع رفقاؤنا على مقصودنا لحالوا بيننا وبين المراد وسدوا سبل فرارنا وذهبت تدابيرنا هباءً منثورًا

فجدد هواء المعبر قوانا واستنشقنا منهُ ما ردَّ علينا الحواس واذهب مضرات الاهوية العفنة التي ابتلينا بها في تلك السفينة وكنا كميتٍ يخرج من القبر ويكثر وجده وشعفهُ في حياتهِ المجددة . وما زلنا نجد في السرى في اثر الهندية حتى وصلنا كوخًا صغيرًا فصاحت بصوت البوم واجابها صوتٌ مشابهٌ لهُ على النور وظهر على اثر ذلك اربعة اشخاص من خلف الجدار واستقبلونا وهم بالالبسة الطويلة البيضاء . ونظرًا لكثرة ما عانيت من المصاعب وقاسيت من النوائب والتجارب ايام تعاستي وابتلائي ببوائق الزمان ولمرارة ما ذقتهُ من كؤوس الايام مدى عمري وطول حياتي فيصحُّ ان تكون اقوالي وافعالي قاعدة تدور عليها القواعد واصلاً تشتق منهُ الفروع ولذلك اقول ان الانسان كما يتنبأُ بالانقلاب الذي يصيبهُ عند سعادتهِ فهو كذلك يتنبأُ بهِ عند تعاستهِ كأن القلب يتأثر من وقوع الحادثات شيئًا فشيئًا فيعلم المرء بحدوثها قبل ظهورها . ونحن لما شاهدنا هؤلاء الاشخاص القادمين الينا في ظلمة الليل حصل في قلوبنا ابتهاج فانفصل واحد منهم وجاءنا منفردًا فصحنا باعلى صوتنا هذا ويليام وظهرت على وجوهنا لوائح السرور وامارات الوجد والانشراح وابتهجنا بهِ ابتهاج الساري بالقمر فيالها من فرحة سارة . فما لبثت بنتي ان قربت منهُ فتعانقا وتشاكيا ألم الهجران

لقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنَّان كل الظن ان لا تلاقيا

وترقرقت حينئذٍ دموعها في عينيها وما قدرتْ على استيفاء ما عندها من لواعج الاشتياق . نعم ويليام هذا هو الذي كنا نتصور انهُ احترق في بارودخانه او انهُ يختبط بدمهِ وهو الآن في صحة وسلامة واقف امامنا . ولكون الموقف غير مناسب لبسط الكلام في الحوادث الماضية . فقبضت آلن على يد زوجها وتقدمت فقال ويليام عندئذ عجلوا في قطع الطريق . فما قطعنا اكثر من الف قدم حتى انتهينا الى

محلة خالية وجدنا فيها اربعة ركائب مع اربعة من الخدمة كل منهم ممسك بزمام فتسنمناصهواتها باشارة ويليام وركضناها وتركنا المشاة وسرنا نلتمس درب كلكوتا . فلما وصلنا باب المدينة رأينا هناك رجلاً هندياً من مستحفظي هذا الباب من احباء ويليام وكان ويليام قد خابره بشأننا فبمجرد وصولنا فتح الهندي باب المدينة فخرجنا . وماوصلنا وسط الجسر الممدود فوق شعبة من نهر جمنا حتى ارتفعت من ورائنا اصوات البنادق ووقعت رصاصاتها حوالينا . فقال صهري ابرز صديقي خبث طينتهِ وسوءُ فطرتهِ فتح الباب واخرجنا ثم ارسل رصاصاتهِ لتشييعنا ولكن الطاف الله حفظتنا وحسن القضاء وقانا وقطعنا الطريق سالمين

وفي اثناء الطريق اخبرنا ويليام بالحوادث التي جرت لهُ اجمالاً وذلك انهُ لما نجا من الهلاك وانقذ نفسهُ بعد احتراق البارودخانه لحق باستحكام الجنرال كراو بعد جهد جهيد . وكانت العساكر المتوقفون فيهِ ينتظرون ورود نجدة برئاسة السردار الانكليزي المسمى (بارنارد) ولما وصل الى ذلك الاستحكام اطمأنت قلوبنا . وكان يدخل المدينة في الليل متنكرًا مع رجلين من الهنود كانا يسلكان معهُ طريق الصداقة ليفحصوا الزوايا والمسارب لكن مساعيهُ لم تجدِ نفعًا فاصبحت خالية من الفوائد وقد كان ذلك ايام اختفائنا في السقيفة . ولما يئس من كوننا في دهلي عزم على الذهاب الى دارنا خارج المدينة كان رأيهُ هذا من الالهامات الغيبية فانهُ لما ذهب اليها وجد الفيلبان فيها يهيئُ لوازم سفرنا ويريد تخليصنا بتمهيد وتدبير فاعلمهُ الفيلبان بمأمننا وكان هذا الرجل الوفي قد هيأ اسباب المسافرة من كل الجهات فاطلع الساكنون بجوار تلك الدار على نيتهِ واخبروا المحتسب الشرير بقصدهِ وقالوا ان هذا المنافق مع كونهِ من الهنود يساعد اشخاصًا من الانكليز ويحتفظ بهم والآن يريد اخراجهم من دهلي خفية فالقى القبض على محمد بغتة من غير سابقة علة او لاحقة خصومة وامر بصلبهِ فصلبوهُ على اغصان شجرة (نارون) في ساحة بيتنا فيالها من شجرة طالما تفيأنا ظلالها الوارفة ناعمين فاصبحت الآن عونًا على اعدام نفس زكية كان عليها جلّ اعتمادنا . ويا ليتنا كنا مطمئنين من المخاوف لنستوفي حق البكاء على هذا الرجل الذي قضى نحبهُ في خدمتنا . لكن يحول بيننا وبين قصدنا تورطنا في المهالك وما تركت حالة الدهشة موقعًا لهذه الملاحظات

والتأثرات دلى ان البكاء حينئذٍ حق دلى الاحياء لا الاموات

ولا بد لي من ان اذكر هنا مثالاً من الحسد الذي جبلنا عليهِ نحن النسوان وورثناه من امنا حواء جيلاً بعد جيل . وذلك ان صهري وبنتي اتفقا في الطريق وكانت لهما في كل خلوة جلوة وفي كل خطوة حظوة . وقرت نواظر آلن بملاقاة زوجها وهي تبثه الشوق وتستغرق جهدها في بيان لاعج الهجران واستيعاب صبابتها وكانا في نشاط وانبساط يتكلمان خفيفًا . ولا ينظران الينا الاَّ طفيفًا . وكنت حين اخاطب صهري في قضية من القضايا قائمًا يعبأ بسؤالي لانه كان غريقًا في بحر التلذذ بملاقاة زوجتهِ مترددًا في ميادين العواطف فهاج حسدي واشتعلت نيرانه في خاطري حتى قلت يا ليتني مت بين يدي الهنود ولم اشاهد هذه الشعفة من صهري في حق بنتي او لم يكفني الجرح حتى ذر عليهِ الملح

الفصل الثامن عشر

﴿ الظلل الدارس والاثر الطامس ﴾

فتقدمتُ عندئذٍ واخذت ساعد و يليام اخذة شديدة من شدة الغضب حتى تنبه قليلاً فسألته هل عندك خبر عن طفلي ودايته . فاجابني جوابًا ملأ قلبي سرورًا فاورقت من استماعه شجرة امالي وزالت غصتي وانثنى حسدي لان جوابه دلني على سعادتي حتى اردت تقبيل رجليهِ من غلبة الفرح

وذلك انهُ اجابني ان ابنك سالم عند دايتهِ وهما في بيتكم القديم ينتظران وصولكم فزالت آلامي ومحني ونسيت المشاق التي تحملتها في تلك الايام وبدلت هذه البشارة ضعفي بالقوة وعادت اليَّ صفات الملائكة وصفت طويتي وطفقت الوم نفسي على ما فرط مني واستغفر الله فركضت فرسي وقد استطير فؤادي من الحبور واسرعت عساي ان ابلغ بيتنا قبلهم كاني طائر ينقض لرؤية افراخه . فما زلت اقطع الطريق الى ان وصلت حوالي بيتنا وكانت لنا فيهِ عمارة عالية قبل وقوع الثورة عشنا فيها اعوامًا عديدة بغضارة عيش وسعادة فلم أرَ فيها وقتئذٍ الا دمنًا واطلالاً . يا لهفي على

تلك الدار العامرة التي لم يبق منها اليوم الا رسم دارس لعبت به عواصف البلايا واحاطت بها الوحشة بعد ما كانت آنسة يفوح مسك التنعم من عرصاتها واسفي على سعادتنا الماضية وجمعيتنا التي حكم عليها الدهر الخؤون بالتفرق والشتات

وكنت اذا عثر فرسي باحجار تلك الاطلال حصل في قلبي تاثير عظيم . وكان الليل قد ارخى سدوله واخذت جذبة ملاقاة ابني العزيز بتلابيب اشواقي وكنت من الجهة الاخرى نافرة من ملاحظة تلك الخرائب الدالة على تعاستنا اعنسف في الدخول والخروج وقد انطمست معالم تلك الدار فلم اقدر على تشخيص مدخل فيها . فصرت اخبط خبط العشواء اقدم رجلاً واؤخر اخرى وليس فيها اثر من السكان ولا ضوء سراج ولا مسرب للضياء يستدل بها على من فيها . فابتليت بوحشة عظيمة ضاعفتها تلك الظلمة الحالكة . وكنت اعملت باصرتي في تلك التلال ذات اليمين وذات الشمال لعلي اجد علامة فلم ازدد الا ضلالاً . فلما يئست من الوقوف على مرادي اعملت قوة سامعتي وحددت اذني عساي ان اسمع اصواتاً دالة على وجد متنفس هناك فما سمعت الا حركة الهوام فلبثت في مقامي باهتة لا ادري باي وسيلة اتوصل الى ابني وقرة عيني وفيما انا في هذه الحال واذا بزوجي وصهري وصلا وترجلا فترجلت انا ايضاً وربطنا افراسنا بالحبال فتقدمت انا وصهري ويليام على زوجي وبنتي واخذنا نقطع الطريق وصهري يهدينا ولو كانت دارنا على حالتها الاولى لوصلنا الى المراد في اقرب وقت اما الآن وقد خربت هذه الابنية الرفيعة ولم يبق فيها جدار ارتفاعهُ شبر ولا علامة يستدل بها على الامكنة الاصلية الا شجرة نارون العظيمة فانها كانت لا تزال قائمة في مقامها الاول من غير تغيير وقد تهدلت اغصانها وانتثرت اوراقها فملأت فضاء الدار . وكنا نمشي متلمسين نحاذر في وضع اقدامنا على الارض ونتنفس بخوف لئلا يطلع هنود تلك الجهة على وجودنا

وخوفاً من الوقوع في حفرة او بئر اخذ بعضنا بايدي البعض الآخر وما زلنا نذهب حتى وصلنا مركز دارنا ومحل سكنانا القديم فلم نسمع الا هبوب الريح وحفيف الاوراق وتغريد الطيور وحركات الدواب الصغار بين الاحجار مع ما نسمعهُ عن بعد من نباح الكلاب والارانب . ولما قربنا من ساق شجرة نارون طرقت سمعنا انةٌ حزين زادت وحشتنا لا سيما انا فان خوفي كان اكثر من خوف الجميع .

فصوّب زوجي وصهري مسدسيهما نحو الصوت وتأهبا للدفاع وكان ذلك الحنين آتيًا من جثة عظيمة ثم رأينا شبحًا كبيرًا يقرب منا رويدًا رويدًا حتى وقف على خمس اقدام فصاح و يليام لا تخافوا هذا فيلنا ذلك الحيوان الفهيم يستقبلنا و يئن شوقًا لملاقاتنا وأسفًا لموت محمد . فقرب وحيّى كل واحد منا بخرطومهِ فلاطفهُ زوجي ومسح خرطومهُ بيده وقال لهُ باللهجة الهندية « ما نفعل هنا » ففارقنا بغتة والصق جثتهُ بساق الشجرة و رفع خرطومهُ مشيرًا الى جثة الفيلبان . ونظرًا للالفة التي كانت بين هذا الحيوان و بين محمد فلما صلب على هذه الشجرة وهو يراه تحت الشجرة ظل يحن ويئن ولا يترك جسده طعمة للسباع . مضى لي كلام في مزايا الفيل واقول فوق ذلك انهُ مع عظم جثتهِ لهُ شعور يناسب هيكلهُ وتمييزه اكثر من تمييز سائر الحيوانات يدرك الخير والشر و يعرف الحب والبغض ولا ينسى اللطف والخشونة . اشتريناه في الهند فمكث عندنا بضع سنين وكانت قيمتهُ تنيف على الفي روبية ولما قتل الاشرار محمدًا سعوا في اخذه فما قدروا لانهُ كان يفر بالنهار الى الصحاري والغابات وياتي في الليالي لحراسة جثة خادمهِ القديم . والخلاصة اننا وجدنا مدخل البيت بدلالة هذه الشجرة وكان صهري قد اوصى الذين جاؤوا معنا من المشاة ان يقوموا بالمحافظة في اطراف البيت . وصفر فلم تمض ثلاث او اربع ثوان حتى ظهر لنا سراج من داخل سرداب كان انبارًا لبعض اللوازم البيتية فمشينا على اثر هذا الضوء الضعيف وليعلم المطالعون ان مقصودي منحصرًا في ايجاد طفلي فقط . ايها الامل انك شيء عظيم . وبمجرد وصولي السرداب رأيت ابني العزيز نائمًا في زاوية من زواياه فهرولت وكدت من شدة شوقي ان انقضّ عليهِ كالباز . واردت ايقاظهُ فقالت دايتهُ لا تعجلي ودعي طفلك نائمًا يستريح ولا توحشيهِ . فقعدت عنهُ واخذت يده اللطيفة بيدي وقبلتها قائلة اي بني طالت جوبتك . وتمادت اوبتك . ابن كنت . و بأي ارضٍ قطنت . امطت عن لبلي الدجى . وعن قلبي الشجى .

. اقر هذا الزمان عيني بالجمع بين المنى و بيني .

فنسيت بملاقاتهِ ما مرّ بي من بوارح السفر . لاني كنت انتظره كما تنتظر الارض وسمي المطر . ولو اردت تفصيل ارتياحي لضاق الوقت وفاتت الفرصة على ان ضيق المقام لا يسمح بذلك . فما طال بي هذا الامد حتى اوعز الي زوجي بان نتنكر بملابس

الهنود . وكانت الداية تقول لما التجاتم في اول الثورة الى دار القاضي وشاهدت اضطرابكم وتورطكم في البلايا ايقنت انكم لا تخرجون منها بسلامة فقلت في نفسي اني طالما تحملت مشاق تربية هذا الطفل من اوان طفوليتهِ وحملتهُ على كتفي من حين تناغيهِ فلا تدعني علاقة الحب التي حصلت بيني وبينهُ ان اتركهُ هنا فخرجت من الدار خلسة وقصدت هذا المكان واعلمت صهركم بمقري ليخبركم بحالي واردّ اليكم طفلكم اذا افرج الله عنكم . وها اني اسلم هذه الامانة النفيسة والوديعة الثمينة اليكم ويكفيني سعادة ان الله وفقني الى هذه الخدمة

فلبسنا تلك الالبسة وطلينا وجوهنا وسواعدنا وارجلنا بلون اصفر كثيف مشابه لالوان الاهالد واخذنا ما نحتاج اليهِ من الماكول والملبوس مما اعده لنا الفيلبان قبل موتهِ وحملناها على احد الافراس ونحن كمسافري البحر اذا اقلعوا في السفن انقطع رجاؤهم من كل الجهات واصبح زمام حركتهم وسكونهم في اكف رياحها ونوتيها فوضعنا ازمة اختيارنا في كف وليام وصرنا منقادين لاوامره فلما حملت الاحمال وحضرت المراكب اقبل الينا وقال «اركبوا الآن واقطعوا الطريق بمزيد التعجيل واذا بعدتم من دهلي خمسة فراسخ تبلغون ساحل نهر (جمار) وهناك غابة كثيفة الاشجار تدخلونها وتوقدون كبريتاً فتجدون فيها بهذه العلامة ملاّحاً استاجرتهُ ليحمل اثقالكم معكم في سفينة شراعية ويكون دليلاً لكم الى مدينة (آكره) واسال الله القادر المتعال ان يحفظكم في حالتي الحل والترحال . اما انا فساذهب لمقاتلة الاشرار الى آخر حشاشة تبقى فيّ حفظاً لشرف انكلترا وعظمة رايتها في دهلي ومحاماة عن ناموسي العسكري »

الفصل التاسع عشر

﴿ مساعدة الطالع ﴾

كنا الى الآن نتصوّر ان صهري لا يفارقنا ويكون بعد ذلك رفيقاً لنا وعوناً لضعفنا فلما سمعت آلن اسم المفارقة صاحت وامسكت ذيل زوجها باكية .

فوقع ويليام بين محظورين لا يدري ما يفعل فمن جهة لا يقوى قلبهُ على المفارقة ومن جهة اخرى لا يريد ان يتخلف عن الحرب لان القانون العسكري يجبره على الذهاب واللحاق برفقائهِ . اما بنتي المسكينة فلا يهمها امر القوانين ولا شرف الخدمة او حفظ الناموس وانما هي تطلب وجود زوجها لنفسها خاصة ولا تبيع حظ لقائهِ العاجل باي خير آجل . فلما رأى ويليام انهُ لا يقدر على ارضائها جذب ذيلهُ من يدها وطفق يعدو نحو الدرج ليفر الى دهلي فبينما هو يريد الخروج واذا بواحد من الخدمة منعهُ وقال اطفئوا السراج لاني شاهدت فرساناً قادمين الينا فسالهُ صهري هل علمت عددهم قال يظهر من صهيل خيولهم انهم نحو العشرين وما أتم هذا الكلام حتى اخبرنا الآخران الفرسان احاطوا باطراف البيت . فصاحت بنتي وقالت « لو قتلنا هنا جميعاً لكان احسن من الفراق ومن حسن طالعي ان الهنود حاصرونا لينسد طريق الفرار عن زوجي »

ونظراً لاشتداد الظلمة وتردد الفرسان في محاصرة تلك الجهة تحفزنا للفرار ورأينا الغنيمة في النجاة فخرجنا متوكلين على الله وقصدنا ميرتهة وما زلنا نخبط في ذلك الديجور حتى وصلنا ساحل نهر جمنا وهو الطريق الذي انذرنا فيهِ الدرويش بتعاستنا القادمة منذ بضعة اسابيع نقابلت سعادة ايامي السالفة بالشدائد الحالية . وكنا نسمع انين الفيل من خلفنا عن بعدٍ الى مدة وظهر لنا انه متأثر من مفارقتنا . اما سبب هجوم الفرسان ومحاصرتهم ايانا ان مستحفظي الباب اخرجونا من دهلي بتطميع صهري وبعد خروجنا اعلموا الاهالي بفرارنا من هذا الطريق فارسلوا هؤلاء الفرسان في اثرنا للقبض علينا . وما زلنا نصل الآساد بالتاويب حتى بعدنا عن دهلي مسافة طويلة وبلغنا غابة صغيرة فاشعلنا كبريتاً فاجابت ذلك الضوء شعلة نار ظهرت بين الاشجار واستقبلنا شخص اشار علينا بالركوب في قارب صغير كان هناك فجلسنا فيهِ وجري المياه بسوقهِ . وكانت المسافة بين دهلي واكره ١٧ فرسخاً فقطعناها في ستة ايام . وكنا نطوي الطريق من اول النهار الى آخره وننزل في الليالي على الضفاف البعيدة عن العمران

ونظراً للدهشة والتعب الطارئين علينا في اثناء النهار من خوف الطغاة واشتداد الهاجرة كانت الليالي نعمة عظيمة لنا وواسطة لراحتنا وكلما تقدمنا وجدنا

الطريق محفوفة بالمخاطر والثورة قائمة ورأينا الفرسان والرجالة العابرين من ضفتي النهر يقتلون الافرنج الذين يرونهم في الطريق . وطالما هددوا ملاحنا ليسوق السفينة الى الساحل لكنهُ كان لا يعبأ بتهديدهم . وكانت تاتينا بعض الاحيان زوارق صغيرة بين صاعدة ومنحدرة بريد الاشرار الساكنون في قرى الاطراف يجتلوا عنا . ولا خفائنا في السفينة اشد الاخفاء كانوا لا يشاهدون لنا اثرًا وفي عصر اليوم السابع نزلنا عن السفينة الى الضفة اليسرى وقد غربت الشمس وانعكست اشعتها اللامعة الحمراء على منائر جامع اكبر فازداد رونقها وبهاؤها . وهذا المسجد من احسن مساجد الهند وضعًا وامتنها بناء . واشرفنا على القصر المرمر الذي بناه أكبر شاه الهندي وهو الآن من استحكامات الانكليز . وبعد النزول وجدنا في هذا الموضع سفنًا وزوارق صغارًا قد رست في ساحل النهر فعرفنا ملاحوها واخفوا عرفانهم وكان ويليام يتكلم باللهجة البنكالية بكل فصاحة كانهُ بعض ابنائها فكالمهم بها فعلمنا ان الشغب يتزايد في هذه الانحاء والانكليز منحصون في قصر المرمر ينتظرون وصول نجدة من الله آباد فتحيرنا في امرنا فاذا دخلنا المدينة لا نجد طريقًا الى الاستحكام الحربي وان حططنا الرحال واردنا الاقامة لا نطمئن من الابتلاء بالنوازل على اننا نعلم يقينًا ان الطغاة سيكشفون امرنا ويقتلوننا فلنا ان نغتنم العجلة في الحركة قبل وضوح الامر . ومن اي الطريق يا ترى يصلح لنا الفرار

وفي آخر الامر تعلقت ارادتنا ان ندخل الشارع الاعظم فانهُ معبر البريد والقوافل عسانا ان نلتقي بعساكر انكلترة فنلحق بهم . وكيف نتمكن من ذلك بلا مراكب . فاجمعت الآراء على ركوب السفينة وقصد منحدر النهر للبلوغ الى مدينة (كاوان بور) التي فيها الجنرال (ويلو) سردار الانكليز فلم يوافقنا الملاح على ذلك وابى الامتثال فقلنا نعطيك الف روبية عن كل رأس فامتنع وقال ما سلكت هذا النهر ابدًا ولا احسن سوق السفينة فيهِ . فقلنا ان كنت لا تقبل التماسنا بع الفارب نسوقهُ بانفسنا فامتنع من هذا ايضًا . وكان مقصود ذلك الطماع المخادع ان يبيع قاربهُ حسب مطامعهِ لما رأى من اهتمامنا الشديد في اخفاء نقودنا لتكون مستورة من وقوف الغير عليها وكنا نموّه ان اكياسنا خالية وزناد ثروتنا كابية . لكنهُ لما اشتم رائحة الروبية اصر على الامتناع حتى نقدناه ثمنهُ خمسماية روبية ولا يشتريهِ احد غيرنا باكثر من مائتي روبية

وبعد قطع المعاملة اصبح من الحزم ان لا ننتظر طلوع الشمس بل نتباعد من اكره قبل الصبح . وحينئذ جاءنا رجلان من الملاحين وتعهدا بسوق سفينتنا وان يكونا عوناً لنا في بلوغ المقصد فردّ زوجي طلبهما وما قبلهما . اما انا لخوفي على ابني وبنتي من احتدام الحرّ في النهار وشدة البرودة في الليل كنت مصرة على ان يستأجرهما زوجي لهذه الخدمة . ولكن تجاربي في حق الهندبين كانت سطحية تتناول الظواهر وتقصر عن البواطن . أرى صورة الاشخاص مرآة لسرايرهم . وقد كنت اشاهد في بشرة هذين الملاحين آثار صداقة ومروءة ولم يخطر لي انهما ينويان تعزيرنا وكنت اظنهما لو ارادا الخيانة بنا لاستطاعا الذهاب الى الاشرار حوالينا واخبارهم بمكاننا . واخيراً رضي زوجي وصهري فاستاجراهما بالرغم عنهما وحلفاهما بهاودا ان لا يخونا ولا ينقضا عهدهما (مهاودا اله من آلهة البراهمة وعبدة الاوثان ولهم في حقهِ عوائد وخرافات مضحكة مثل آلهتهم المسماة برهما . وفيشنو . وسيفا . «معرب») فحلفا بمعبودهم ونحن غافلون انهما يضمران عداوتنا وان طريقتهما مخالفة لطريقة البراهمة ونحن لجهلنا اختلاف الفروع والاصول المذهبية قيدناهما بهذا الحلف الخالي من النتيجة المأمولة ولا ندري انهما من معارف اللصوص الذين يشتغلون بالسرقة على شواطىء انهر الهند . وخلاصة القول اننا تحركنا من مقامنا بمزيد الاطمئنان وكان مرورنا من محاذاة قلاع اكره . ولما وصلنا هنا تاملنا قليلاً فوق الماء لعل الانكليز المتحصنون فيها يروننا ولما يئسنا من تلك الاشارة وكانت الشمس على وشك البزوغ بعدنا عن المكان خوفاً من الاشرار

كنا في راحة منذ ركوب هذا الفلك لان العريش الذي يظللنا وسيع ويمكننا في خلال ذلك تغيير اللباس اذا دعت الحاجة اليهِ وكان زوجي وصهري يخرجان الى ساحل النهر يصيدان البيغاء والطاوس وبعض الطيور المائية فنشوي لحماً طرياً نتغذّى بهِ . والمسافة الواقعة بين اكره وكاوان بور من طريق الماء سبعون ساعة وهذان الرجلان يسوقان السفينة بتأنٍ وتأمل عمداً وفي اليوم الثاني انكسرت سفينتنا بقرب الضفة اليسرى في موضع تقاطع الساحل بالخط العمودي ودخل فيها الماء فنزلنا واخرجنا منها بعض اللوازم لئلا تغرق واستمسكنا بعروة الفكر في جهة انكسارها وكيف انها انكسرت في هذه النقطة من غير سبب . فما ادركنا سبب ذلك وانما حملناهُ

على سوء الطالع و بالجملة اننا صعدنا الى غابة وانتخبنا ثمة قطعة ارض مسطحة خالية من الاشجار واخترناها منزلاً لنا ولما اقبل الليل اوقدنا نارًا لدفع اذى البعوض وشر السباع ثم اكلنا عشاء مختصرًا من بقايا طعام اليوم واقمنا شرائط العبادة . ولما قرب وقت النوم قال زوجي يجب ان يكون كل منا حارسًا لنا بنوبة معينة الى الصبح ونكون مطمئنين . ومن يقدر على النوم وقد شوشت تصورات الحوادث الماضية خواطرنا بحيث لا نقدر على تمديد الاعضاء فضلاً عن النوم

وكنت اتصور كيف يمكن لنا السفر بعد ذلك هل نجد زورقًا لمواصلة السير . وهل ننهض من وهدة الذل والمسكنة . وهل يرجع الينا عزنا السالف فتناومت بهذه الحالة ليتنفي زوجي وبنتي اثري في النوم و يستريحا واظنهما ايضًا تناوما رعاية لحالي والذي نام عندنا بزيادة راحة وفراغ بال ابني ويل وكان صهري خارج الخيمة مشغولاً بالحراسة لان نوبته تنتهي قبل نصف الليل بساعتين ونوبة زوجي الى اربع ساعات بعده وبعدها نوبة حراستي الى آخر الليل

الفصل العشرون

﴿ طائفة ثوك الطغة ﴾

اما الرجلان اللذان معنا فانهما القيا ثوبيهما على رأسيهما في زاوية منقاطعة بالخطوط المائلة الاستوائية وتبين لنا انهما ناما . وكنا قبل النوم قد جمعنا شيئًا كثيرًا من الاغصان والاوراق والنباتات اليابسة وتركناها خارج الخيمة عند موقدة كانت هناك لنوقدها تباعًا دفعًا لمضار الوحوش والحشرات اللادغة . فقال احد الرجلين « انا في الغداة ابحث عن سفينة تحملكم » آه ما اطول الليالي التي تمر في خط الاستواء كنت في الخيمة مستلقية على قفاي جاعلة صدري بساطًا لطفلي كأني في سكرة من توارد القلاقل وتراكم المخاوف فتارة اخاطر بنفسي في مدلهمات الرزايا وأخرى استعمل ترياق الصبر ومرهم الثبات واسلي نفسي الحزينة واقاوم الاهوال . ومع ذلك فلم اكن غافلة عن حالة زوجي وبنتي اعد انفاسهما واجس نبضهما وامتحن دقات قلبهما . واذا

رأيت النبض ودقات القلب منتظمة على حسب القواعد الطبية والموازين الطبيعية اطمئن بالي واذا رأيت احداً في انقلاب واضطراب اتلوّى كحية اصابها جرح والذين هم مشغوفون بحب العائلة معلنون بأولادهم يعلمون ما اقول ويدركون ما لو اردت شرحهُ لطال الكلام . ولما قربت نوبة زوجي خرج للحراسة ودخل صهري ونام في مكانهِ ولعلمي بشفقة زوجي علي خفت ان يغلب علي النوم في نوبتي المعينة ولا يوقظني للحراسة رعاية لي ويستمر في عملهِ فعوّلت على ان لا انام ولكن الطبائع البشرية عجيبة المرء حريص على ما مُنع فقد كنت من اول الليل الى مضي ساعتين من نصفهِ مطلقة العنان في النوم فما مالت عيني اليهِ ابداً واما الآن وقد حانت نوبتي وقربت ساعة حراستي اجد نفسي مائلة الى النوم وقد غلب علي بحيث لا اقدر ان اكون حافظة على زمام اختياري . فما مضت عشر دقايق الا وامال النعاس رأسي فما منعني هبوب النسيم من النوم مع اني كنت اريد ان افوز في جنح الليل بمشاهدة بديع الخلقة ونوادر الطبايع ولكني نمت ولم يؤثر فيَّ زئير الليوث . ولا بغام الظباء . ولا ضغيب الارانب . ولا نباح الكلاب . ولا صرصرة البراة . ولا جلجلة التمساح . ولا طيران الخفافيش . ولا حترشة الهوام بين الاخشاب . ولا تلاطم امواج جمنا . ولا تكاثف الظلمة وادلهامها في هذه الليلة الليلاء . ولا مطلع الكواكب واحساسها . ولا غوارتها وركودها . وما اجدت تفكراتي في تلك البدائع فائدة فران على جفني الكرى . وعراني منهُ ما عرى . على ان مشاهدة هؤلاء النعوت . مما ينتج الوله والبهوت . وفيما انا في عالم النوم كأن يداً نبهتني فقمت من النوم مذعورة وطفقت امسح عيني وانظر الى جوانب الخيمة فاوجست في نفسي خيفة وتصورت شخصين يجولان في اطراف الخيمة فغلبت عليَّ الواهمة انهما ربما كانا من طايفة ثوك المتقدم ذكرها وهم الذين يعتبرون خنق الانسان من غير تابعي مذهبهم ثواباً دينياً . فاستولت علي هذه الفكرة بدرجة كان جسمي خلا من الروح فما بقيت فيَّ قوة للحركة والقيام وفي اثناء ذلك بكى طفلي وانتبه بصوتهِ زوجي وصهري وناداني فزالت وقتئذ وحشتي فاظهرت لهما التفصيل فسخرا بي ونسبا الي الجنون وكانت النار الموقدة في خارج الخيمة قد انطفأت من ساعة فالقيت في المستوقد حزمة حشيش فشبت النار والتفتنا الى الرجلين اللذين كانا دليلينا وقد ناما في مقربة من الخيمة فاذا هما قد قاما لانلافنا ولما رأيانا انتبهنا هربا وغابا عن انظارنا

فعلمنا انهما من فرقة ثوك (الطغة) وانهما لما احسا ان عندنا شيئاً من النقود والاحجار الثمينة كسرا سفينتنا عمداً وانزلانا في هذا المنزل البعيد عن القرى والمدن ليهجما علينا بدون مانع ويختلسا نقودنا ويهلكا نفوسنا . لكن لطفه جل وعلا شملنا ببكاء الطفل فما نالا قصدهما الفاسد وفرّا فرار الآبق . فتباً لهما من خادعين ماذقين . وهل يمكن النوم بعد هذا وقد بقيت لطلوع الصبح ثلاث ساعات وبرد النسيم فنام ويل وجلسنا نحن الثلاثة بجانب الموقدة نتشاور ونمهد طريق الغداة ونتفكر في وسايل الحركة وجهات العزيمة وكانت لصهري خبرة تامة بالطرق والشوارع فقال نحن الى الآن لم نقطع نصف طريق كاوان بور ولنحترز بقدر الامكان من دخول الطريق العام فان الطغاة قد ملكوا هذه الجادة . ولو كنا نزلنا حين انكسار السفينة على الضفة اليمنى لكان احسن لنا لخلوّه من العمران وخطر العابر والمتردد لكننا كنا مجبورين على النزول بهذا السمت لان هذين الخبيثين اوردانا هذا المورد وليس لنا حق ان نشكو سوء حظنا فان انكسار السفينة كان مبنياً على قصد معين كما اطلعتم عليه . وقد رأت ارباب التجارب والسياح في كثير من الاوقات ان هؤلاء الاشخاص الذين يباشرون قتل الخلائق يشكلون ادارة لعملهم هذا هي عبارة سبعة شركاء لكل منهم وظيفة بناء على السنن التي اخذوها عن رؤسائهم وعلمائهم واليك البيان

(الاول) مرشدهم ورئيسهم الذي يتلقون اوامره المطاعة (الثاني) الذي يخدع الناس ويلقي الشراك (الثالث) رجل مرتاض متعبد شغله القيام بقراءة الادعية المتضمنة تمجيد معبودهم عند اهلاك النفوس (الرابع) و (الخامس) رجلان يشتغلان بحفر الحفر العميقة ليطرحا فيها اجساد القتلى (السادس والسابع) هما المكلفان بخنق الذين خدعوهم بمنديل مخصوص لهذا الامر . وطريق الدفن هكذا . يطرحون الجسد على ظهره في قعر الحفرة ثم يلقون الآخر فوقه على بطنه بحيث يحاذي رأس الاول رجلَي الثاني وان كان المخنوقان اكثر من اثنين يضعون الثالث فوقهما على ظهره والرابع فوقه على الترتيب المذكور .

فقلت لزوجي الا تظن هؤلاء الاشرار يحملون علينا فقال ويليام لا تخافي اني اعرف بهم منكم وقد اطلعت على شرائط اغنيالهم فانهم ينصبون شباك الحيل لايقاع النفوس في ورطة الهلاك خفية ولا يقدرون على ذلك جهاراً . وفيما نحن كذلك واذا بوقع

اقدام خفيفة تقرب الينا فاستلّ صهري وزوجي مسدسيهما وتأهبا للاطلاق فرأينا قرني ظبي ظهرا بين اشجار الغابة وعلمنا انهُ شاهد ضوء النار من بعيد فاراد التفرج بها لكنهُ لما رأى حركة زوجي فرهاربًا . هذا الحيوان الجميل ليست لهُ راحة في الغابة بياض اليوم وسواد الليل يهرب على الدوام خوفًا من الوقوع في مخالب النمور والاسود لا يتوقف في مكان قط وهو في الحقيقة مثلنا . والخلاصة انهُ ابتسم ثغر الصبح وانتشر جناح الضوء في الافق ونحن نردد رأي ويليام ان نحترز من دخول الشارع العام ونقطع المسافات من هذا الطريق وكان يقول ان الهنود لم يستفحل امرهم في بلد مدن الهند كاستفحالهِ في دهلي وميرتهة ويحتمل ان تكون ناحية اله آباد خالية من الفتن آمنة مطمئنة . واول هندي نلاقيهِ في طريقنا يعلمنا بمجاري الامور وربما اتخذناه واسطة لتحصيل طعام او لباس او مركب او عربة لحمل الاثقال . اما زوجي فكان لسوء ظنهِ بهؤلاء يحترز من ملاقاة الهنود ودخول الطرق العامة وقال حينئذٍ اريد ان اذهب الى سنديا فان لي فيهِ رفقاء وشركاء من الفلاحين . وقد كانت لي سلطة خاصة على زوجي غير ما لنسوان فرنسا على ازواجهن وسبب ذلك اني من اول زواجنا شاركتهُ في التعب والراحة وآسيتهُ في الشدة والرخاء وما اطلقت يد الاسراف في مالهِ ولا خنت ناموسهُ وما تجاوزت عن طريق العصمة والوفاء ولهذه الامور كان يعتمد علي ويثق بحصافة عقلي

الفصل الحادي والعشرون

الاجتياز في الصحاري

ولما بينا رأيهما في اختيار السبل استطلعا رأيي وبعد التوكل على الله قلت يقوم في خاطري ان اسلم الشقوق طي الطريق من ساحل نهرجمنا فما خرج هذا الرأي السقيم من فمي الاّ وتلقياه باستحسان . وناهيك عن تصدع الفؤاد اذ أتذكر رأيي هذا والنتائج المشئومة التي ترتبت عليهِ . فما سرت الينا هذه السموم الاّ منهُ نعم اذا جاء القدر عمي البصر ولجريان اقلام القضاء بحكم المشيئة الازلية على فنائنا

استحسنا قولي حتى ترامت بنا البلدان والاسفار وتتابعت علينا سهام القضايا ووقعنا في المهالك . الوم نفسي مادمت في قيد الحياة واتلهف على خطائي الفاحش ودلالتي الخاسرة في بقية ايامي السوداء . وخلاصة القول انا دخلنا اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي وكان ذلك اليوم بعده فاتحة الغصص لوحييت الفي عام ما نسيت المصائب التي وردت عليَّ فبادرنا بالمسير وما زلنا نغير ونجد حتى انقضت ثلاث ساعات ونحن نخوض الاراضي السبخة ذات الرمال المحرقة تارة ندخل الغابات واخرى نتخلل الاكام فلوّحت الشمس محيانا لعدم مظلة تظللنا في تلك الهاجرة التي يكاد اوارها يذيب دماغ الضب . وصلنا والحالة هذه الى غابة عظيمة اختلف فيها جهات السبل فانهكنا التعب واللغوب وكان زوجي قد اعيا لانهُ كان يحمل حملاً صغيرًا من احمالنا انا وبنتي ايضًا كنا نحمل ويلاً مناوبة

وهذا الطفل قد غلب عليهِ العطش في هذه المفازة يشير الى النهر بيديه الصغيرتين وانا اخاف ان تأخذه حمى مهلكة من شرب هذا الماء الغليظ وكنت تارة اشغلهُ واخرى اسقيهِ جرعة قليلة تسكينًا لسورة عطشهِ وقد حصل لي تحسر عظيم لانني لا اقدر ان اسقيهُ . ولعنت من كان سببًا لايقاعنا في ورطة البلايا وزاد اسفي لما رأيت نارجيل كثيرًا في الاشجار (النارجيل او جوز الهند ثمر معروف شجرهُ يشبه النخل شكلاً طلعهُ عقارٌ قابض يخرج من اصولهِ سائل مسكر وهو طعام كثير من الناس واذا كان طرياً فهو من الذ الفواكه « المعرب ») وليست لي قدرة على تحصيل شيء منهُ ليأكلهُ طفلي ويسكن عطشهُ ولو واصلنا السير لهلك فخطر هنا لك ببالي انهُ كان في عمارتنا التي خربت في اثناء الثورة في الغرفة المعدة للاضياف بين ستور التصاوير سترٌ عليهِ صورة صورها احد مهرة مصوري فرانسا واظهر فيها حالة عائلة فلاحةٍ انكليزية ابتلت بالفقر والافلاس بعد الغنى والثروة واضطرت للجلاء عن وطنها فلما خرجت كان يتقدمها في المسير اب اطرق برأسهِ الى الارض وقد احاطت بهِ الهموم . تتبعها ام متحيرة في حجرها طفل رضيع وبنت مسكينة باكية يتبعهم ابنٌ في العاشرة او الثانية عشرة يجر عربة ذات عجلتين حملوا عليها اثقالهم وما يستعينون بهِ على مؤونة السفر . وكنت حين رؤيتي هذه الصورة في اوقات سعادتي تنقبض نفسي وما كنت اتوقع ابدًا ان اقع في هذه الحالة وان الصورة الموهومة التي نقشها المصور

اظهارًا لصنعتهِ ومهارتهِ يتحقق مفهومها بي واكون موضوعًا لهذا النقش الخيالي . وما زلنا نطوي الوهاد والربى حتى وقف المسير بنا على ابتداء غابة فملنا الى ظل شجرة من التين وهو ينبت في اكثر الغابات والاهاند يعبدونهُ وهو يثمر نوعًا من التين احمر اللون حلو الطعم تأكلهُ الطيور خلافًا للتين المشهور بتنكالي فانهُ امرٌّ من السم النقيع . فحططنا رحالنا وتناولنا شيئًا من ثمرهِ اما صهري فكان كسائر الاصهار الذين استعبدتهم محبة زوجاتهم فيخدمون اقاربهن وعشيراتهن اظهارًا لحسن الوداد فكنس الرمال والتراب في بقعة صغيرة واوقد نارًا لتتفرق الحشرات لاسيما البق الموذي ثم فرش تلك البقعة باوراق الاشجار وسيجها بالاشواك ودعانا للجلوس ثم غاب زوجي هنيهة وعاد بطيور اصطادها واقتطف قدرًا كثيرًا من الفاكهة من الموز والبطيخ الهندي فانتظمت لوازم تعيشنا وجلسنا في تلك النقطة ثلاث ساعات بعد الظهر اكلنا شيئًا مما حضر واسترحنا من وعثاء السفر

ثم تفكرنا في الطريق ونحن ضالون في تيه التعاسة لاندري اننا في اول غابة طولها عدة فراسخ فما الذي يجب علينا ان نفعلهُ للنجاة من هذه المهلكة هل نبتدئ من جانب النهر ام من هذا الخط الضعيف الفاصل بين الغابة والاكمة وعلى اي حال كان علينا ان نسعى في الخروج قبل دخول الليل . وقد طالما لهجت السنة حكماء انكلترة وشعرائها بالاحتراز من المبيت في هذه الامكنة وذكروا في غضون كلامهم واشعارهم المضار المنتظرة من التوقف فيها . وبعد التأمل العميق صممنا على قطع الطريق من هذا الخط

ان السباع والوحوش الضارية كثيرة في غابات الهند بل هي اكثر من ان تحصى وفيها انواع الحيات ومنها نوع ادق من الخيط يسمونهُ بناجا وهي اخبثها اذا نهشت قتلت من ساعتها . وغير ذلك من الحشرات القتالة والهوام المؤذية والخفافيش الصغيرة والافيال العظيمة والقرود والكركدن والذباب السام وفيها الحفر العميقة الممتلئة بالوحل والمياه العفنة التي تغير من نتنها الهواء المجاور لها بمرور الازمنة والدهور والتوت باطرافها الاجام بحيث اذا وضع الانسان رجلهُ في واحدة منها غاص في الطين اللازب وغرق وليس لهُ سبيل للنجاة ولا يمكن لاحد اخراجهُ . كل هؤلاء كانوا في انتظار ضيوفهم الواردين ليقوموا بواجب الضيافة .

فقلنا ولنغتنم النهار لنبلغ قبل انقضاء الضياء قرية ننزل في ساحةٍ خالية من الاشجار نتخذها منزلاً

وما كانت آمالنا الاَّ مجرد خيال لانا ما قطعنا في الطريق اكثر من ساعةٍ الا وخرجنا من الغابة ووصلنا الى تل رفيع صعدنا ذروتهُ فاشرفنا على صحراء عظيمة واسعة كثيرة العشب والكلاء تمتد بامتداد البصر ورأينا من مسافة بعيدة شارع الهند كحاشية بيضاء خيطت على متن اخضر . وظهر لنا في انتهاء الافق وخاتمة الصحراء اثار مدينة عظيمة من قبيل منارات المساجد وعلائم القصور

فقال ويليام هذه مدينة اتاواه فصاح زوجي فلنتوكل على فضل الله ولنقصد هذا السبيل واذا لمعنا مكانًا نختاره منزلاً . وفي الحقيقة ليس الهنود كلهم يريدون فناءنا فقد نجد قومًا ذوي مروءة او نلتقي بطائفة ذات قوة فنستريح من تكبد الاسفار والاخطار . ونظرت في هذا الفناء الوسيع فلم يظهر فيهِ شيءٌ يدل على الثورة او علامة تنبئنا ببلوغ الفتن الى هذه النواحي وخاطبني زوجي قائلاً « ألا ترين الحمال وعليها احمال التجارة تمر متقاطرة على الطريق . ألا تشاهدين تلك الافيال العظيمة وعليها الهوادج يقطعن الطريق بطمانينة تامة . ألا تنظرين الى هذه العربات وهؤلاء الفرسان والمشاة يسلكون السبل من جهات مختلفة . ألا ترين الدراويش وابناء السبيل يتسولون بتذلل ودعة والنساء اللائي يحملن الماء على ظهورهن أليس كل هذهِ من علائم امنية المملكة وعدم سريان الثورة الى هذه الناحية واملي وطيد انا قد طوينا ارض الرعب وصرنا الى حمى الامن ان شاء الله »

مضت على زوجي ايام طويلة ما رأيتهُ يتفاءل بامثال هذه الكلمات فعلمت انهُ يريد تقوية قلوبنا ببياناتهِ المهيجة وخيل لي انهُ قد انتهت ايام التعب وسيبتلج نجم سعدنا ولكن كلامهُ قلما اثر بنا ولا طابت نفوسنا ومع ما شاهدنا خضارة الصحراء ونضارتها كانت تزداد همومنا كاننا اتخذنا البلايا التي قاسيناها الى الآن علامة المصائب التي سنبتلي بها وان في طي ايامنا الآتية مصاعب وخطوبًا ذات الوان . ثم رأينا على مائتي ذراع من موقفنا دائرة يحيط بها سياج كثيف من الخضرة فيها جماعة كبيرة يتحركون . هل هي قطيع غنم عائد من المرعى يريد الراعي ادخالهُ في القرية . ام هي بقر اشتغلت بالرعي . وفي اي حال لم يكن لنا بد من ملاقاتها

فرجونا فضل الله ورضينا بمشيئته وتحركنا اليهم وكان يزداد تعجبنا لحظة فلحظة لاننا كنا نسمع من تلك الجماعة صوتًا عجيبًا لايشبه صوت الانسان ابدًا . وشممنا بعد قليل رائحة عفونة كريهة

واحرباه ووالوعناه كلما شاهدته في معابر دهلي رأيته في هذه الصحراء . ولما وصلنا المكان رأينا عشرين نفرًا من ابناء وطننا أُشربوا كاسات الحتوف ووقعوا على صعيد الارض صرعى وعليهم حلل ارجوان . وظهر لنا ان الاشرار المحليين تلاقوا بهؤلاء فتقاتلوا ثم دفنوا جثث قتلاهم وتركوا اجساد الانكليز امام الشمس تحوم حولها الوحوش والنسور وتشرب من جوانحها غربان الفلاة . وما كانت تلك الجماعة التي رأيناها من بعيد الاَّ الحيوانات التي اجتمعت على اجساد المقتولين . فاطلق زوجي بندقية فتطايرعنها اكثر من الفي غراب وفرَّت عدة كثيرة من الكلاب وبنات آوى . فلما دخلنا تلك المذبحة وجدنا نسورًا عظيمة الجثث ملأت احشاءها من لحوم الاموات حتى لاتقدر على الحركة فابعدناها جبرًا . وكان ويل في حجري ودموعي تنسكب من اماقي . سبحان الله الى اين ذهبت تلك البشائر التي كان زوجي يبشرنا بها فقد انقلبت بهذه السرعة . وعلمنا ان الثورة تفاقم امرها في هذه الاصقاع ونحن النعساء ما خلصنا من ايدي متعصبي دهلي حتى وقعنا في مخالب سباع آله اباد ومملكة اوده

الفصل الثاني والعشرون

﴿ القرية المحصورة ﴾

ولما بعدنا من هذا الموضع شاهدنا آثار قرية محصورة وامثال هذه القرى كثيرة في مملكة بنكالة . وذلك ان ساكنيها يحيطونها بسور محكم حولهُ خندق بعيد الهوى والطريق الذي نسلكهُ الآن ينتهي اليها والصحراء كما قلنا كانت ذات حقول ومزارع من الارز والحنطة . والعجب ان القرية تظهر خالية من الناس مع رقوعها في تلك الارض الخصبة المعمورة ورأينا في داخل حصار القرية نخيلاً . فقال زوجي ارى

انهُ قد التف بنخلة شيء يشبهُ اللواء . فقلت مجيبة اظن ما نراه يتلوى حول النخلة راية انكلترة وان عساكرها نصبوها علامة يهتدي ابناء وطنهم بها . فما اتممت قولي الاَّ وطرح هذا اللواء بنفسهِ الى الارض كأنهُ حيوان ذو روح فتحيرنا بين ان يكون انساناً او قردًا لانهُ كان شبيهاً بكليهما بل هو اشبه بالقرد في سرعة حركتهِ ووقوعهِ على الارض . قال زوجي لقد تطيرت بهذه العلامة والظاهر ان سكنة هذه القرية اقاموا رصدًا فوق النخلة ليلاحظ الاطراف و يطلع على العابر والمتردد فيخبرهم فقال صهري اني ارى جماعة خرجوا من القرية ومشوا الينا . فتأملت وقلت اني ادق منك نظرًا ان هؤلاء الاشخاص متلبسون بالملابس الحمر وهي مخصوصة بفرسان عساكر الانكليز كما جرت العادة بذلك . فقال زوجي الامر كما تقولين لكن عساكر الهند ايضاً قد يلبسونها

وكنت قد لحظت منذ بضعة ايام ان زوجي صار الى غير عاداتهِ وطبائعهِ فاصبح لا يتكلم الا نقيض ما نقول . ورأيت في مسلكهِ تبايناً كلياً مع مسلكي وانا في عجب كيف يتكلم بهاتهِ اللهجة الشديدة . فلما أسفي ان كثرة الاحزان اضلتهُ فقد مزاياه الاولى السامية وقد اخجلهُ عجزه عن تخليص اهلهِ وعيالهِ لاينفك عرق الخجل متصبباً على جبينهِ ووجنتهِ برافقنا منفردًا ويطوي الطريق متفكرًا لايكترث بسؤالنا . وان اجابنا كانت اجوبتهُ خشنة . أليس هذا زوجي الشفيق ورفيقي العتيق الذي عشت معهُ سنين . وانيت في بيتهِ ببنات و بنين . لو عوقت المقادير موتهُ لتغيرت طبيعتي وتحولت حالتي وكما ان الامراض تدعو الى ضعف الابدان فالتعاسة توجب انكسار القلوب وانقلاب النوايا والضمايا وبعد برهة صاح و يليام وقال هؤلاء القادمون فرسان عساكر الانكليز فاخذ عمامتهُ عن راسهِ ونشرها ثم شدها الى راس بندقيتهِ مثل الراية ورفعها قائلاً « فلتعش امة انكلترة ودولتها » فاسرع من بينهم ثمانية اشخاص على افراسهم وقصدونا ثم وقفوا على عشرين قدمًا وصوبوا الينا بنادقهم وقرب منا رجل مسن وصاح بالبنكالية » من انتم وابن تريدون « فقال صهري » يا للعجب لايعرف كابتن مارتن ابنهُ وتلميذهُ القديم فما » لبث ذلك الرجل وقتئذٍ ان نزل من مركبتهِ وتعانقا وتهلل وجههما انبساطاً ولا اشرح تفصيل هذه الملاقاة وما قد يقع في امثال تلك المواقف فانها غنية عن

البيان فلنذهب لبيان المطلب

ان « كابتن مارتن » من ارباب المناصب الذين شهدوا الحروب والمغازي لهُ منزلة عليا في مملكة انكلترة مات ابوه ويليام ايام طفوليتهِ فرباه ذلك الرجل واقام بكفالتهِ حفظًا لحق الصحبة التي كانت لهُ مع ابيهِ . فلما ترعرع ونما انخرط في سلك العساكر وابرز شجاعتهُ وواظب على اداء وظائفهِ حتى نال درجة النيابة . وكنا نعرف اسم الكابيتن قبل هذا اسماً وكان من المدعوين في وليمة تزويج آلن التي انعقدت في دارنا قبل الثور فما امهلنا القضاء ان نختم هذا العرس على وفق امالنا . ولما فرغنا من المعانقة عرّفنا ويليام بهِ واحدًا بعد واحد ثم انطلقنا الى القرية وعلمنا اثناء ذلك ان مارتن قد فرَّ من مدينة فرخ اباد مع عشرة من الفرسان وثمانية من المشاة ليذهب الى آله اباد او بنارس . فالتقى في الطريق بجماعة من الارامل والايتام واقتضت حميتهُ ان يوصل هؤلاء التعساء الى مأمن لعلهم يخلصون من الموت . وما زال بهم الى تلك النقطة فتاجاهم هناك بغتة فوج من الطغاة وحاصروهم في تلك القرية وجرت بينهم وبينهُ محاربات شديدة . وبعد ذلك نصب الاشرار خيامهم وحطوا رحالهم وهم يتقطرون غضبًا وفي نية مارتن ان يحفظ هذا الجمع ويقاوم تجاه شراذم الاشقياء بفرسانهِ المعدودين . وفي اليوم الثاني لحقت اهالي القرية بالهنود وذهبوا بما في ايديهم من الارزاق والمواشي والاغنام فبقي هذا الرجل الغيور بين عذابين شديدين الحصار وقلة المؤونة

ومن التجارب التي تقع للبشر في موارد الخير والشر علم انهُ اذا اشتدت غياهب المصاعب واحلولكت ليالي الخطوب تطلع لهُ شموس السعادة وتنقشع سحبها المتراكمة بغتة فان لكل بداية غاية . وقد قيل في ذلك

ان ترى الدنيا اغارت ونجوم السعد غارت
فصروف الدهر شتى كلما جارت اجارت

فتصورت اننا بملاقاتنا هؤلاء المنكودي الحظ الذين قضت عليهم مصائب الدهر بالبقاء تحت سلطة التعاسة سننقضي ايام النحس ويأتي الوقت الذي تخرج فيهِ يدٌ غيبية تبشرنا باقبال النعمة وبلوغ الاماني وانقضاء ليالي محننا المدلهمة

ومجمل الكلام ان زوجي زالت غصتهُ وانبسط وجههُ ولانت عريكتهُ وترك

الفظاظة وطفق يعاملنا باللطف واللين والرفق والحنوّ وصهري داخلهُ ارتياح خاطرٍ من ملاقاتهِ بالكابتن وصار يقول ان الهياج سيرتفع بعد ايام معدودات وتصبح رياح الامن سارية في تلك الجهات وننظر في امر العرس فنزلنا هذه القرية وشاهدنا صاحبنا الذي رأيناه اولاً فوق النخلة

وكان الكابتن خائفاً من حملة الاشرار فاخذني من خوفهِ سوء ظن وسليت نفسي ببعض التوهمات . اقبل الليل فعينوا منزلنا في بيت سقفهُ من القصب بقرب منزل الكابتن وامروا تسعة اشخاص من الفرسان والمشاة للحراسة الى منتصف الليل لينوم جمعٌ آخر بالمحافظة بعد انقضاء نوبتهم . وقال زوجي وصهري نحن ايضاً نقوم ونحرس من نصف الليل وقرروا بعد المشورة ان الاشرار اذا هجموا فعلى النساء ان ينتقلن جميعاً الى القرب من حجرة الكابتن وجاء نصف الليل وحانت نوبة زوجي وصهري فهبّا من النوم وذهبا فاردت ان اعرف نقطة اشتغالهما بالحراسة فانطلقت على اثرهما وبعد معرفتها عدت الى مكاني ونمت

لا أنكر ان نومي كان ثقيلاً للغاية لاني لما استيقظت رأيت الضوضاء مرتفعة وكان نصف القرية في حالة الاحتراق . فاخذت بيد بنتي وابني وذهبت الى موعدنا المعين فظهر لي ان الحريق من الشعل النارية التي القاها الاشرار في بيوت القرية واجتمع امام منزل مارتين جمع من النسوان ينيف عددهن على الخمسين . اما عساكر الانكليز فانهم دافعوا في الاطراف ثم علموا ان المحاربة مع التفرقة لا تنفع . فاجتمعوا في محل اقامتنا وقد بذلت جهدي في البحث عن زوجي وصهري فلم اجدهما في الجمع . فشوشت غيبتهم خاطري وقلت هل اصابتهما طلقات نارية في اول وهلة فاتا . فما مرت هنيهة على ذلك حتى ظهرا فاطمأنّ قلبي . ثم دخل الهنود حائط القرية بخيلهم ورجلهم وتقاربت الفئتان . وبعد اطلاق الرصاص جردوا المرهفات وقامت الحرب على ساق وقدم وطال الكفاح فاخذوا يضربون السيوف ويشربون الحتوف . واول من خرّ على الارض مفتولاً كابتن مارتن ذلك الرجل المقدام وقتل الرجال واحداً بعد واحداً حتى اتت نوبة النساء فصاح صهري وقال لزوجي قد احتدمت الحرب فعلينا ان نفر من حومة القتل واحسست في نفسي قوة للفرار في رجلي من غير معاونة الغير فضممت طفلي الى صدري وانطلقنا مسرعين

الفصل الثالث والعشرون

﴿ خطب فادح ﴾

آه واحزني على توارد مصاعب تتصدع لها متون الراسيات . ووالوعتي على حيل هذا الدهر المشعبذ الذي يصور كل لحظة صورة جديدة في صحايف تعاستنا ويمتحننا في كل آن بهمّ كارث نحسبهُ آخر المصائب ثم لا تلبث امالنا ان تزول فنسقط في ورطة تنسد مخارجها وتضيق معارجها وتنطفئ لمعة النور وتحيط بنا الشرور . اين ذهبت تفاؤلات زوجي ان امانيهُ لم تعش يومًا واحدًا وما ذاقت مقلتنا ليلة كراها الا واعقبت النوائب هجودها . ولا جرم فقد دلنا رائد التقدير الى طرف من اطراف القرية المحترقة . فحسبنا الوصول الى ذلك المقام فوزًا عظيماً ثم فررنا من هذه الجهة الى الصحراء وكان هؤلاء الشياطين يعدون من خلفنا فقربوا منا بحيث كنا نسمع وقع اقدامهم ثم ظهرت امامنا مزرعة من قصب السكر فاختفينا فيها . وبعد قليل سمعنا صوت الابواق فقال زوجي طيبي نفسًا وردي روعك . هذا هو الامر لهم بالرجوع فسيرجعون ونامن الخطر ثم رجعوا عنا وما كانت رجعتهم هذه الا اطاعة لحكم قوادهم وامراء معسكرهم لاتمام احراق عدة من الانكليز بين الذين اخذوهم في المعركة وليشتركوا معهم في هتك نواميس النساء اللواتي اسروهن

رجعوا ولكنهم اطلقوا في اثنا الرجعة بنادقهم علينا . . . شلّت ايديهم انهم ما فرغوا من اطلاقها حتى سقط واحد من امامي وآخر من خلفي . وقع صهري اولاً ثم زوجي على الارض، وقد انفتق السحاب عن القمر فاغبرت عيني وضاقت عليّ الارض بما رحبت فشهقت وطرحت طفلي من حجري والقيت نفسي على جثة زوجي فرأيتهُ قد انجرح وهو يقول « لا تصرخي ولا تخمشي وجهك افل نجم حياتي وغربت شمس عمري ولا خوف لي من ذاك الا اني اخاف عليك وعلى اولادي من الهلاك » فشرقت حينئذٍ بالبكاء لا ادري ما افعل ولا افهم ماذا اعمل

فسألتهُ اي عضو من اعضائك اصيب بالرصاص . فوضع يده على صدره وقال « اصابتني الرصاصة من ظهري وهي الآن في داخل صدري فتوكأ عليّ وقام ومشى بضع

خطوات فغلب عليهِ الوجع وسقط مرة اخرى ونادى اذ ذاك صهره و بنتهُ وابنهُ وما اجابهُ احد الا طفلهُ الصغير . فقمت الى صهري وانا انصور ان و يايام يمكن لهُ ان يقوم و يجيء اليهِ . العياذ بالله من هاته الليلة اني لا اشرح كلما شاهدتهُ عنوًا ايها القاريء الكريم فان هذا نتف يسير من اخبار ابتلائي فيا ليتني مت قبل هذا البلاء العظيم و يا ليتني مت في هذا الموقع لئلا أرى تلك الحوادث . ولما قربت من صهري رأيتهُ قد سقط راسيًا و وضعت بنتي رأسهُ على حجرها تنظر الى جبينهِ في ضوء القمر وهي بين ضواغط الحزن تخنقها عبراتها . فظهر لي ان صهري اصابتهُ الرصاصة في نخاعهِ فقطعت اعصاب قلبهِ وضعضعت اركان حياتهِ من ساعتها وما تمكنت بنتي المسكينة من وداع زوجها في نفسهِ الاخير فقلت لها قد انجرح ابوك قومي اليهِ قبل خروج رمقهِ فما اجابتني . سبحان الله قد اعتراها خبل وانحطت حواسها اما انا فرجعت الى زوجي فقال اين هما اين صهري و بنتي لم يجيئا لاودعهما في هذه الساعة المتممة لعمري فان نفسي مشتاقة اليهما وما الفائدة اذا وصلا و وجداني ميتًا وحياتي لا تدوم اكثر من لحظة لاني على شفير الموت

فقلت بتهيج لقد غلبت عليك الوساوس . ما هذا الذي تقولهُ فاجابني بصوت منقطع »آي زوجتي العزيزة قد حان ميقاتي . . . وهذا آخر حياتي برد بدني وتلاشت اعضائي خذي بيدي واسندي رأسي الى احضانك الآن افارقك . ذهبت واستودعكم الله الآن والى الابد . . . استودعكم والله حافظكم . »

وما أتم كلامهُ حتى قضى نحبهُ وفارق الحياة آه . . . ولمصيبتاه يالجسامة الخطب لقد تراكمت عليَّ المصائب فامطرت هواطل الذل والهوان حتى غرقت في بحرها الذاخر وكثرت عليَّ مضارب الحدثان فاصابت حشاشة فؤادي وغاية مرادي . غار كوكب سعدي فبقيتُ وحدي .

فكأنما قرن الزمان بمولدي زحلاً فكان النحس من ميلادي

ماذا افعل يا ترى حينئذ هل ينفع صراخي وعويلي هل يعالج سقم بسقم و يدافع داء بداء . هذا الذي سقط ميتًا كان بشرًا أُحبهُ ويحبني . كان زوجي وعوني على دهري ومشيري في أمري ومشاركي في يسري وعسري . فبمن ابغي الانتصار بعد على نوائب الدهر الغدّار

وخلاصة القول ان رأس زوجي كان في حجري ويد طفلي اليتيم بيدي وما زلت اراعي نجوم الليل واناجي بنات نعش حتى اذا طلع النهار التفتُّ الى بنتي فرأيتها لم تتحرك من مكانها ابدًا وهي لا تزال تنظر الى وجهِ زوجها والهة حيرانة من غير بكاء او تكلم كانها هيكل جامد ركز في موضعهِ وكأن زوجها قد نام وهي تخاف ان توقظهُ الا بعد استيفاء النوم . فمسحت عبراتي واقتديت بها في النظر الى جبهة زوجي ثم فكرت في حالي وناجيت نفسي قائلة « من الذي تريدين وما الفائدة من الانتظار . قُتل زوجك وبعد ساعة تلقين انت ايضًا واولادك في ايدي الاشرار » وكان ويل كل دقيقة يذهب الى اختهِ ثم يرجع ويجول في المزرعة كانهُ ادرك وقوع المصيبة وعلم بموت ابيهِ وزوج اختهِ . وبعد ساعة سألني الى متى ينام ابي الا ينتبه من نومهِ . فعلمت انهُ لم يعلم بالوفاة وكيف اقدر ان اعلمهُ بان هذا النوم نوم ابدي لا يقظة لهُ وسكر لا صحوة منهُ فاشرقني البكاء وقلت انك طفل طاهر القلب اطلب المغفرة لابيك وزوج اختك وادع لنا عسى ان ينظر الله الى صغر سنك واسترحامك فيرزقنا فرجًا . فجثا على ركبتيهِ وشرع في الدعاء . ثم ارسلتهُ الى اختهِ ليرى هل هي ساكتة مبهوتة ام غيرت حالتها فرجع وهو يقول رأيتها تبكي . فشكرت الله لان المهموم اذا لم يبك عند توارد المصائب يخاف عليهِ من الفجأة وما تنظف اكدار القلوب الا امطار الدموع والبكاء هو الواسطة الوحيدة لتزكية الروح وتخفيف وطأة الحزن

ثم كثرت الجلبة وارتفع القيل والقال في طرف القرية ورأينا دخانًا غليظًا طبق الجو فعلمنا ان الاشرار احرقوا القرية بتمامها . وحينئذ جلس ويل عندي واتكأ عليَّ ووضع رأسهُ على ساعدي وشكى من الجوع وكان ذلك تتمة تعاستي ان اسمع صوت طفلي اليتيم يشكو الجوع . فاعتراني خفقان قلب ودوار فاغمضت عينيَّ وطفقت اناجي نفسي « من لي بقطعة خبز او جرعة ماء في هذا المكان فان الغابة على مسافة بعيدة والنهر كذلك فلا ابلغ اليهِ الا بعد جهد جهيد وكيف اترك جسد زوجي منفردًا واذهب . فدار في خلدي ان اقصد الاشرار واتقدم اليهم بعجز ومسكنة واسألهم طعامًا لطفلي فان قتلوني اراحوني من هاته الحياة التعيسة .

فما كان املي هذا الا كخطّ على سطح الماء وما كنت الا كراجي سراب بقفرة بيداء هل ينقذ الموت طفلي من مخالب الجوع والعطش . كلا . العياذ بالله من هذا

الخيال الباطل لو كنت اطلب ذلك ليلاً وانا لا استطيع تحصيل الغذاء لطفلي اما الآن وقد ضربت الضحى اطنابها كيف يمكن لي هذا . وفيما انا في ذلك واذا بطفلي قد رفع عويلهُ واجهش للبكاء فنسيت الميت وقمت لتخليص الحيّ وكنت حائرةً في امري مرتبكة باحوالي فسترت جثة زوجي وقلت لويل ان اباك قد نام فلا ترفع صوتك وانتظرني ريثما اجيء . ولما قربت من بنتي نظرت اليّ مستفهمة ولسان حالها الى اين تذهبين وما تريدين ففهمتها قصدي فما اجابتني ولكنها مدت يدها الى المزرعة وقطعت قصبة من قصبات السكر والقتها اليّ . فكسرتها واعطيتها الى طفلي ليمصها فلما مصها سكنت سورة عطشهِ فندمت على غفلتي و رجعت . ثم تصورت ان امتصاص القصب يسكن عطش ويل لكنهُ يشكو الجوع بعد حين فماذا يدفع جوعهُ بعد ذلك لا اظن على وجهِ الارض والدة أو امرأة ابتليت بتعاستي عظمت لوعتي وصدعتني النوائب صدعاً فكيف الخلاص من هاته الحياة المشحونة بالاكدار . فليت شعري الام تتجاوز ملمات الزمان حدودها . وتستفرغ في حقي مجهودها .

يارب ان كان عيشي هكذا غصصاً فامنن عليّ بموت فهو اروح لي

لبثت في تيه الاستكانة انظر يمنة . فما اشاهد الا محنة . اعطف يسرة . فما ارى الا الحسرة . اذا ذهبت الى الاشرار فلا ارجو منهم مروءة . هل بركن اليهم بعد ذلك ويعتمد عليهم . وان بقيت هنا لا أطمئن من تجسسهم والامَ نقعد ونبكي هل ينفع البكاء لا أنسى مدى عمري ذلك المشهد المحزن الذي يمزق الاحشاء ويفتت الاكباد ولكن ما العلاج وقد وقعت الرزية

الفصل الرابع والعشرون

﴿ دفن العزيزين ﴾

ان الاجساد تتعفن في تلك البلاد الحارة بسرعة لا توصف بحيث لا تترك فرصة للتأمل فليس لنا الا ان نضع هذين الجسدين العزيزين امام الشمس ليكونا طعمة لمغربان والفهود كاجساد سائر الانكليز . . . لا والله لا ارضى بهذا ولو قطعت اربًا

ساحفر لها قبرًا بانامليِ ولو تقطعت فاشتغلت بحفر القبر ساعة بجد وافر حتى سال الدم من رؤوس اصابعي وانا لم احفر الاَّ شبرًا واحدًا . وسمعت حفيف اجنحة الطيور ورأيتها ترفرف فوق رأسي تريد الوقوع على جسد زوجي فاستأنفت الحفر ثانية حتى امتلأت خلايا اظفاري بالرمل والتراب واصاب انامليِ جرح عظيم فعجزت عن العمل فوقعت بجانب الحفرة ناظرة الى السماء والعياذ بالله واوشكت ان انطق بما لا يليق . اما الطيور فانها قربت مني بحيث كادت اجنحتها تمس وجهي فقمت صارخة وقلت « ايها الهنود ما بالكم لا تجيئون وتقتلونني فاستريح » وفيما انا في ذلك واذا بطفلي فتح يديهِ وعانقني وهو يشكو الجوع

نعم كان يجب عليَّ اولاً ان ادفن زوجي لاني كنت ضجيعتهُ ولهُ عليَّ حق البعولية لكنني لا أقدر ان أنسى حق ابني وهو مهجة فؤادي ولا ينسنى لي ان اتركهُ جائعًا حتى تزهق روحهُ فهممت بالذهاب الى الغابة وانطلقت اولاً الى بنتي فوجدتها مشبكة اصابع يديها مطرقة برأسها تنظر الى وجهِ زوجها فاعلمتها بقصدي فتنفست الصعداء وقالت : هل يجوز لنا التفكر في امر التعيش وقد وقع هذان العزيزان في هوة الموت وهل يليق بنا ان نتركهما طعمة لوحوش الفلاة ونسورها . فاريتها يديَّ فلما رأتهما تصورت اني اخبرها باني حفرت قبر زوجي وبقي قبر زوجها . فقالت لم يبق مجال للتفكر تكفينا هذه الحفرة ندفنهما في موضع واحد فاجبتها ان اصابعي انجرحت لعدم وجود الآلات المعينة على الحفر فما اجابتني ولكنها وضعت رأس زوجها على الارض واستلت من وسطهِ خنجرًا كان ملوثًا بالدم من محاربة البارحة وقالت لي هاكه ثم انطلقنا حتى اتينا الحفرة وكانت الارض رخوة فسهل حفرها بالخنجر فاشتغلت بالحفر بسرعة عظيمة وكنت احفر باليمنى واخرج التراب باليسرى كامهر الحفارين . فتصوَّر ويل ان عملي هذا من قبيل العوبة الاطفال فاخذ في معاونتي ولاشتغالهِ بخيالهِ قلت لهُ اذا ساوت الحفرة قدك اعطيك خبزًا وفي اثناء الحفر سمعنا من خلفنا صوتًا فخطر لنا خاطر بعيد عن العقل وذلك انا تصورنا ان الله اعاد الحياة لزوجي او صهري فلما نظرنا علمنا ان نسرًا قرب من صهري ورفع رأسهُ للاكل ولما اطلع على وجودنا القى الرأس خوفًا وهذا هو الصوت الذي سمعناه . لا تلوموني ايها المطالعون على اوهامي هذه فان المبتلين بموت الاعزة ربما تدور في خلدهم امثال هذه الاوهام التي تشبهُ

الطيران على اجنحة الخيال في جو المحال

فقالت بنتي علينا ان نعجل في دفن هذين الجسدين فان الطيور تهجم لاكلهما . فاشتغلنا بحفر القبر فحفرناه حالاً وعظم علينا ما لم نر بدًّا منهُ وهو ان نفارق ازواجنا فراقًا ابديًّا لا تلاقي بعده وان نواريهما في حجاب التراب ونتركهما في بطن الثرى ولكن تلك سنّة اودعها الله تعالى في الطبائع الانسانية ان ينسى ما بعد عنهُ من النوائب ويفكر في ما يقترب اليهِ من الشؤون والطوارق . ولا ادري الآن اي هذين الجسدين احق بالتقديم عند الدفن هل يجب ان يعاون بعضنا بعضًا في حملها الى الحفرة ام نحملهما واحدًا بعد واحد . فاجبرني حب الامية ان اترك بنتي المسكينة مع جسد زوجها لتستوفي حقها منهُ عند دفنهِ وقدمت دفن زوجي فقربت منهُ واحتضنت جثتهُ وطفقت اسحبهُ حتى ادنيتهُ من شفير الحفرة وكان ويل قد قبض على ذيل ابيهِ

ولما رأيت اني مفارقة زوجي لا محالة اردت ان اخذ منهُ ما يكون تذكرة لي بعده فادخلت يدي في جيبهِ فما وجدت شيئًا ثم ادخلتها تحت مدرعتهِ وفتحت من حقويهِ هميانًا مملوءًا من الليرات الانكليزية وشددتهُ على وسطي . هذا هو الميراث الذي تركهُ زوجي لطفليهِ اليتيمين وهذه بقية ثروتنا الوافرة التي خلفها زوجي . وعليَّ ان اكفل امور ابني وبنتي واكون رقيبةً لاعمالها حافظة لحالها ويا حبذا لو كانت تدوم هذه البدرة عندي . وبالجملة اني نظرت الى زوجي فوجدتهُ قد تبدل لونهُ وصار ذابلاً واصبح وجههُ كأنهُ الشمع صفرة ونحولاً وفقدت بشرتهُ لونها الاصلي وعرفت شعور رأسهِ السود عند الاحتضار في آخر دقيقة من حياتهِ ثم بردت بعد ذلك ولصقت بجبهتهِ فارتسمت من لصوقها على وجههِ خطوط مصفرة . فاسمرت نظرتي برهة وتناثرت دموعي وتساقطت الى ارض التعاسة والحرمان وحينئذ قمت مذعورة وانحنيت عليهِ وقبلت جبهتهُ بقبلات حارة شهية واردت ان اخذ من هذا الزهر المعصفر ذخيرة لنفسي قبل ان يواريهُ التراب فوقعت شفتاي عند تقبيلهِ على خصلة من شعوره الملصقة بوجههِ فقصصتها باسناني واخفيتها في جيبي وحسبتها حرزًا حريزًا ونذرت ان احفظ هذه الوديعة النفيسة ما دمت في قيد الحياة

واخرجت من اصبعي الخاتم الذهبي الثمين الذي كان قد اعطانيه عند الزواج فادخلتهُ في اصبعهِ واردت بهذا اني لا اختار زوجًا بعدهُ ثم ناديت بنتي وبمعاونتها

القيت جسده في قعر الحفرة ونقلنا جسد ويليام الى شقيقها ووضعناه فوق جسد زوجي وبعد تلاوة الصلاة عن نفسيهما وارياهما في التراب وردمنا عليهما الاحجار واخذت بنتي عند ذلك خنجر زوجتها وما اخذنا منهما شيئاً سواه ونحن نتوهم انهما يلتفتان الينا ويعلمان باعمالنا وما كان خيالنا هذا الاَّ جنون . واللواتي تموت ازواجهن يعلمن ان ما اقولهُ لا يردهُ عليهِ . اما ويل ابني فلما شاهد تلك الاعمال المحزنة سألني لم واريتم ابي وزوج اختي في التراب فقلنا لهُ بمزيد حسرة وتوجع « مات ابوك وثوى بين الاحجار وتركك في جمرة اليتم » . فرفع حينئذٍ عويلهُ وبكى بحالة صدعت قلبينا وزادت حزننا وفيما نحن في البكاء والانين سمعنا صوت طافة مدفع تبعها قيل وقال في معسكر الهنود ثم انقطعت الجلبة وبعد مضي دقيقة سمعت صوت طبل كأن فرقة عسكرية تتحرك على خلاف الجهة التي كنا فيها فسررنا سروراً عظيماً لزعمنا اننا خلصنا من شرور مجاورتهم . فلم يكن كلمح البصر واذا بدوي طبل قرب منا شيئاً فشيئاً فعلمنا ان الاشرار انقسموا قسمين رجعت جماعة منهم الى القرية وتحركت اخرى الى السمت الذي نحن فيهِ . بيد ان سبيلهم على مقربة هذه المزرعة التي توارينا فيها

ولا يمكن لنا الاختفاء الاَّ بخارق العادة . فوثبت بنتي من مقامها واخذت اخاها واختبأت في تلك الحفرة ثم نمت انا فوقهما . كان هناك ميتان تحت التراب ونحن الثلاثة فوقهما نستعدهُ لتجرّع نقيع الموت . ومرَّ الهنود وفيهم الفرسان والمشاة بنظام كأنهم في ساحة الاستعراض ومعهم عربة لحمل الاثقال واثقال ذات هوادج . وطال ذلك المرور الى ربع ساعة ولم يشعر اولئك الذئاب المفترسة بنا وبعد انقطاع اصواتهم خرجنا من الحفرة

تصوروا الآن حالة ضعيفتين تعيستين مع طفل صغير وقعتا في بيداء المذلة في ارض العدو لا سائس لهما ولا حارس لا تعرفان منزلاً ولا معاشاً . اذا جنهما الليل ارقتا واذا اوضحهما النهار قلقتا . وما الذي تقدر عليهِ مخلوقة تعيسة عاداها الزمان وكل شيء ينهددها تنتظر الموت في كل آنٍ . لا الموت الفجائي والاجل الذي يدرك الانسان بغتة فيريحهُ ولا الموت الذي يقتل المريض بعد مدة في احضان عشيرتهِ واقربائهِ . ولما اردنا المفارقة رميت بنفسي الى القبر واحتضنتهُ والصقت احشائي ببرد ذلك التراب فبكيت وتوجعت ثم افترقنا ويالهُ من فراق أليم

ومشينا واعتمادنا على الله فعبرنا من حوالي هذه القرية التي كنا فيها في الليلة الماضية ونحن في لباس فقراء الهند فلم يطلع علينا احد . وما زلنا على ذلك حتى قربنا من الشارع الكبير وفي جانبهِ غابات عظيمة فاختفينا فيها ووقف بنا السير على روضة فالقينا عصا التسيار وتغذينا باثمارها واشجارها حتى هدأت نفوسنا فغلب عليَّ التعب وانهكني فوقعت واستولى عليَّ النوم فنمت ست ساعات فلما استيقظت رأيت بنتي قد صنعت مظلة فوق رأسي زينها ويل بباقة من الزهور ثم عمدنا الى ايقاد النار تخلصًا من شر السباع فجمعنا حطبًا كثيرًا ولكننا لا ندري من اين نجد جذوة نار فرجعنا الى معسكر الهنود وتجسسنا موقدةً وجدنا فيها جذوة اتينا بها واشعلنا الحطب ونمنا بجانب تلك الموقدة . مضى الليل كلهُ من غير ان تكتحل عيني بالكرى ولم ازل في مغالبة الاوهام ومقاساة عنتها الشديد افكر في موت زوجي الذي كان حافظًا لنا راعيًا لاحوالنا حتى حسدتني عليهِ المنون وخانني فيهِ الدهر الخؤون . ماذا تفعل امرأة مع طفل ان ثلث سنين وبنت مسكينة غرقت في بحور المصائب والفتن وحارت في بوادي المتاعب والمحن وهل نبلغ مدينة كاوان بور او اله اباد واذا كانت الغداة من اي سبيل يجوز لنا الذهاب . ان طريق اله اباد مع بعده احسن الطرق لاحتمال ملاقاتنا بعساكر الانكليز لكننا لا نعلم ان هذه المدينة في قبضة الطغاة ام هي باقية على ما كانت عليها وبعد التفكر عولت على الدخول الى مملكة اودة بعد طلوع النهار

يا لتعاستي ويا تعاسة جدي لو كنت حولت امري الى التقادير وما عولت على تدبيري الضعيف في سلوك طريق اله اباد ما قتل ابني وبنتي وكان لي الآن حيث انا في باريس انيس لغصتي وجليس في غرفتي . وللانسان ان يحول اموره الى مشيئة الله ويطلب منهُ طريق النجاة والسداد . فانهُ ان عوَّل على رأيهِ . وركن الى سعيهِ . يرى ما رأيتهُ . ويقاسي ما قاسيتهُ

الفصل الخامس والعشرون

﴿ رباط في الطريق ﴾

ولما طلع النهار تحولنا الى جهة المشرق نقصد مملكة اوده وما زلنا نقطع

الطريق ونغوص في الرمال ونستنشق الهضاب والتلال والهاجرة قد استعرت واشتد وهيجها فقلت لبنتي اننا منذ الغد نسلك الطريق ليلاً واذا اقبل النهار ننزل في غابة او نسكن في جنب ماء . وبعد مسير عدة فراسخ شاهدنا من مسافة غير بعيدة اثار رباط من الرباطات التي يبنيها اولو الثروة في الطرق على نفقتهم لتكون منزلاً لابناء السبيل ومحطاً للقوافل . ولما اقتربنا منها رأينا انهُ لا يمكن لنا التواري في الغابات ولا نقدر على الرجوع لاننا صرنا في مرمى ابصار اهل ذلك الرباط فرأينا ان نمشي اليهم بجرأة رفعاً لسوء ظنهم فينا ولما افضينا اليها وجدنا حوالي هذه النقطة جمعية قد انقسمت على هيئات مختلفة بين قائم وقاعد ومنتبه وراقد . ورأينا في القاعة اناساً جالسين يدخنون النرجيلة والغليون يستمعون وقائع الثورة واخبارها وفي مدخل الجدار عربات كثيرة وفي الجهة الاخرى مراكب وافيال وجمال تبطنت الارض واطالت الاعناق لاستنشاق الهواء . ورأينا في درب الحصار كثيراً من الهوادج المخصوصة اركوب النساء بين مقنب وغير مقنب فظهر لنا ان رجلاً متموّلاً نزل هناك مع اهلهِ وسائر متعلقاتهِ وهذه احمالهُ وخدمهُ وحاشيتهُ يتحركون معهُ . وعلى اي حال اننا لم نكن نستطيع الاختفاء ولا الرجوع . وكنا اذ ذاك على ربوة صغيرة تشرف عليهم فرآنا بعض اولئك المسافرين فاخبر الباقين فاظهروا البشاشة ودعونا اليهم وهم يظنون اننا من الهنديات اللواتي يجئن من اطراف المغرب على امل ان يكون معنا خبر عن الوقائع فنطلعهم عليهِ فاجبنا دعوتهم وذهبنا اليهم وما بقيت بيننا وبينهم عشر اقدام واذا بصاحب صوبة (صاحب الصوبة اي صاحب الرتبة العسكرية واصل الصوبة عند الاهاند الايالة كقولهم صوبة بنكال صوبة دكن) تقدم الينا وساء لنا بالبنكالية « من اين تجيئون ومن اين انتم » فاجبتهُ بتلك اللهجة « ركبنا السفينة من بلدة اكره وسافرنا فوق نهر جمنا فصادفنا قضاء الله وانكسرت سفينتنا وهلكت رجالنا ونجانا الله من الغرق »

فما اتم جوابنا فيهِ وطفق ينظر الينا بكل امعان وتأنق وفي أثناء ذلك وقع نظره على الاحذية الافرنجية في ارجلنا فاشتبه في امرنا فكلمني ثانية بلغة من اللغات الهندية الصعبة على سبيل الامتحان فما فهمتها ابداً . وكان هذا الهندي من الاهاند الذين تصوّرت حكومة الانكليز في ابان سلطانها على الهند انها تمكنت من جذب قلوبهم فتوهمت انهم تركوا تعصبهم الملي من صميم افئدتهم فالبستهم ملابسها العسكرية وقلدتهم

وساماتها وهي غافلة انهم وان اظهروا الطاعة والانقياد لكنهم لا ينفكون عن عصبيتهم . وان اللين الذي يبدونهُ في معاملاتهم انما هو من قبيل لين الافاعي

كان هذا الرجل في الثلاثين من عمرهِ تقريبًا وما رأيت في مدة سكني الهند رجلاً مثلهُ في مهابة الصورة لانهُ كان خشنًا طويل القامة نحاسي الوجهِ نظره كنظر النسر متأنٍ كثير الدقة والحذر يمط حاجبيهِ مطاً كانهُ موت تجسم في زي انسان . وكان ينظر الينا ضاحكًا مستخفاً كسنور يراقب فارًا ويسن اظافرهُ فاذا صاده لاعبهُ وداعبهُ قبل اكلهِ ويتزيبق شكلهِ هكذا وجدناه مستعدًا لازدرادنا . آه لا أنسى أبدًا وقاحة وجههِ وفظاظة حالتهِ وقد ارسل يدهُ اليسرى وراء ظهرهِ وقبض باليمنى على مقرعة مقبضها من الذهب ومشى الينا مشية الخيلاء وهو يلحظنا شزرًا . ويوسعنا تدقيقًا وتأملاً .

فظهرت علامات ارادتهِ بكل وضوح وكيف لا والعيون رسل القلوب

وللعيون رسالات مرددة تدري العقول معانيها وتخفيها

اما بنتي فتوردت وجنتاها من نظرتهِ الخبيثة وتألمت ملكة عصمتها وتصبب عرق الخجل من جبينها فلفّت رأسها ببرقع الحياء وقد كان القوّاد وافراد الجند الهندي قد تعاهدوا اذا التقوا بنساء الانكليز ان يهتكوا عصمتهن ويفتكوا بهن والعياذ بالله . وهذا الرجل استهوتهُ ملامح الن فتن بها افتتانًا شديدًا فجعل يخالسها النظر ويريد ان يجعلها لنفسهِ من غير ان يعرف رفيقاه فقرب مني وقال لي كلمات تمنعني عفتي من ان اذكرها لان الخباثة والدناءة تقطران منها . وقد سمعت من قوارص نجواه وقوارع كلامهِ مالا يحتملهُ قلب بشر .

فما ترك ويل مجالاً لهُ ليتم كلامهُ لان هذا الطفل الغيور تعجب من ذلنا بين يدي ذلك الهندي وقد تعود ان يرى الهنود وقوفًا بين ايدينا بغاية الأدب . فلما رأى الهندي انتصب امامنا متكبرًا يلاطفهُ ويمسح وجههُ بانامل السود ويضع يدهُ على رأسهِ قال لهُ بغلظة « تنحَّ عنا » فما خرجت هاتان الكلمتان من فيهِ الاَّ واحاطت بنا اولئك الجماعة دفعة واحدة واورثت هذه العبارة الجارية على لسان طفل صغير انقلاب الاحوال واضطراب الاقوال فكنا كفرض تنتقل فيهِ المنايا وتنهب تبادره المصائب وقد خيل لهذا الجميع ان عساكر الانكليز حملت عليهم بتمامها او ان قنبلة من ديناميت انفجرت بينهم فسحب بعضهم مسدسهُ وانتضى الآخر سيفهُ وصوبت طائفة بنادقها نحونا وجرد هذا الهندي

ايضاً سيفهُ ووقف امامنا وقد امتقع لونهُ واكفهر . فتصورت لاول وهلة انهُ يريد ان يحمينا وما كان الامر كما ظننت فانهُ لما رأى انهتاك سرنا وانتهاك سترنا وتحقق اننا انكليزيتان وقد هجم رفاقهُ على طعمتهِ الخاصة وهو لم يتمكن من امالهِ السافلة ولا بدَّ لهُ من ان يقبل شركة رفاقهِ في هذه اللقمة فتطايرت شرارة الغضب من عينيهِ وامتلا غيظاً وحنقاً واتفق معهم على اذيتنا . وفيما نحن في ذلك واذا بعدة من الهنديين وثبوا على بنتي وثوب الفهد على الغزال . واويلاه من هذه الحادثة الشنعاء .. اخذوها وابعدوها عني ليقضوا غصن عفافها . وبعد ساعة رأيتها نجت من ايديهم وهي تفر وتستغيث وفي أثرها رجلان يتعقبانها لقضاء مآربهم وشهواتهم البهيمية

فالقت بنتي التعيسة نفسها في خيمة مضروبة صادفتها في طريقها ومن حسن الاتفاق ان تلك الخيمة كان فيها بعض الهنديات النجيبات فوجدت بينهن امرأة مسنة فترامت عند قدميها واسترحمتها فوضعت تلك المرأة يدها على راس البنت — ارادت بذلك انها اجارتها . ولما شاهد هذان الرجلان دخولها في خيمة النسوان ما اجترءا على الدخول ورجعا فما مضت بضع دقائق حتى احاط الهنود بالخيمة من كل الجوانب وهم طامحو الالحاظ كثيرو القطوب والعبوس يصرخون باعلى اصواتهم ويخاطبون هذه العقيلة المسنة ويقولون « ايتها السيدة المعظمة بحقك علينا ان تتفضلي وتستمعي عرايضنا ولاتجيري هاتين الجاسوستين في ظل رحمتك انهما ليستا مستحقتين لهذه الرعاية ائذني لنا لنخرجهما ونصلبهما فنشفي قلوبنا » . والراجا الذي كان قد اتخذ هذه النقطة منزلاً (الراجا والراجة بمعنى السيد) من اعيان هندستان ومشاهيرمتمولیها اسمهُ « مومو كمجي » يقطن مدينة اله اباد وقد تبع سائر الراجات حينئذ في نشر الوية العصيان . وتحرك بقصد الاتصال بامثالهِ ليتحد معهم على الانكليز وهذه الامراة المحترمة التي اجارتنا أُمهُ

ومجمل القول انهُ ما مضت على هذه الحماية برهة حتى تسلطت علينا داهية دهياء وذلك ان تلك المرأة الشقية قطعت حبال رجائنا بقساوة وغلاظة . لاننا لما وردنا خيمتها كانت مشتغلة بقراءة الادعية فما ارادت قطع الصلاة ولما فرغت وفهمت اننا من الانكليز اخرجتنا بغاية الشدة فاشتعلت نار الفتنة ثانية وارتفع طوفان البلايا فاحاطت جماعة الخدمة وافراد العساكر بنا وانتشب بيننا وبينهم الجذب والدفع والاخذ

والرد . كانوا يجروننا طوراً على الوجوه من موضع الى موضع وطوراً يرفسون بطوننا فصرنا بينهم كاعشاب يانعة تميلها الريح الى كل الجهات . وما يكون قط اسير في ايدي الجلادين في حالتنا ولو صلبونا او القونا تحت اقدام الفيلة لكان اسهل علينا من هذه الصدمات . فتمزقت بقية ألبسة خلقة كانت على ابداننا من المقاومة لتلك المصادمة . ومن الصدف الحسنة انهُ انقطع وقتئذ الهميان المملوّ بالليرات من وسطي وانتثرت مسكوكاتهُ فتركونا على الفور وانكبوا على التقاطها

وفي أثناء اشتغالهم بذلك ضممت بنتي وابني الى صدري ضماً شديداً ريثما فرغ هؤلاء السفاكون من جمع النقود وقصدوا تفريقنا بكعاب اسنتهم وظبات سيوفهم فسحبونا بهذه الحالة الى شفير نار موقدة فلما رأيناها ارتعدت فرائصنا وعلمنا انهم يريدون احراقنا فانقطعت عرى رجائنا من كل الجهات . لاننا وجدنا انفسنا نصب الحتوف ووقع نظري حينئذ على ذلك الهندي الشقي الذي كلمنا اولاً وتأسفت عن عدم انقيادي لاشارتهِ وكلما اعتذرت اليهِ او استرحمتهُ زاد قسوة وغلظة . وكان الراجا جالساً في نافذة من نوافذ غرفتهِ المرتفعة المطلة على مقتلنا مع حفدتهِ بين يديهِ وحرس على رأسهِ للتفرج بحالنا . ووقف ذلك الرجل امام منظرتهِ عن بعد لا ندري هل هو لا يقدر على استخلاصنا ام هو يعاندنا لعدم رضائنا بمعاشقتهِ فلا يعتني بالحاحنا .

الفصل السادس والعشرون

﴿ وصول الدرويش ﴾

ولما رأيت الرجاء مقطوعاً والموت واقعاً لا محالة عمدت الى خنق طفلي لئلا يبتلى بذلك العذاب الاليم . فما بقي من اختناق طفلي الا دقيقة واذا بشخص اختطفهُ من يدي عنفاً كانهُ يريد استخلاصهُ فتركتهُ لهُ راجية حياتهُ ونظراً لكثافة الدخان الحائلة بيننا وبينهم ما عرفت ذلك الشخص . وفيما نحن في هذه الحالة واذا بيد اخذت بكتفي وابعدتني مع بنتي من النار . فعاينت حينئذ حالة البعث والنشر كاني حييت بعد الموت وشاهدت تلك العوالم التي سمعت وصفها في صبوتي فاخرجتنا تلك اليد من حومة المعركة ووضعتنا على ربوة صغيرة هناك . فمسحت عينيَّ فرأيت رجلاً وقف امامنا كسد

سديد بل هو هيكل نجاة يكلم هؤلاء بالهندية وهم ينكسون رؤوسهم وابصارهم ويخضعون بين يديهِ خضوع الاسرى بين يدي الانصار . وجدت لهُ عندهم نفوذ سيد مقتدر يحكم على غلمانهِ وخدامهِ . فما فاه ذلك الرجل بكلمة الا وسجدوا امامهُ تعظيماً لاحكامهِ وانقياداً لالهامهِ فتوسمتهُ وتفرست فيهِ فاذا هو الدرويش المعهود الذي سبق القول على نومهِ على شاطىء جمنا وهو الذي اعطيتهُ الدراهم بواسطة ويل فقد اشترى اليوم نفوسنا بهذ الثمن البخس وحقن دماءنا مكافأة لهذه الصدقة الزهيدة واعاد حياتنا . وشتان بين الفعلين

يا للعجب وللقدرة التي شاهدتها من ذلك الدرويش الذي يظهر من قذارة جسمهِ وسربالهِ انهُ غائص في الاوساخ والادران بحيث تستقذر رؤيتهُ الطباع متلبد الشعر كثيف المخاط دنس الاهاب كث اللحية رث الهيئة . ومع ذلك فهم يتيمنون ببركات انفاسهِ ويفدونهُ بالاموال والارواح . فانهُ بمجرد قولهِ لهم « ان هؤلاء الثلاثة في حمايتي » تباعدوا عنا ووقفوا على مسافة مناوتضرعوا اليهِ قائلين « ايها السيد الكريم ايها المولى تنح عنهما . لم نترحم على كفار الافرنج الذين تسلطوا علينا منذ قرون وسنين ونحن صاغرون . ان اولئك الظلمة لا يراعون حرمة مذهبنا ولا يلاحظون شرف ديننا ولا يوفون بعهودهم التي ضمنوا بها رفاه حالنا بل هم يختلسون بضاعتنا بالمكايد ويسرقون اموالنا بالحيل والشعبذة . لا يحترمون مساجدنا ولا يؤدون حقوق علمائنا . أطلقوا ايدي الاعتساف في اعراضنا وجعلوا اعزتنا اذلة . وبدور ايامنا اهلة . يحثون قسوسهم على دس الدسائس ليخرجونا عن ديننا القديم الذي تدينّا بهِ منذ الف سنة . وقد زرعوا بذر النفاق والمخالفة في قلوب سلاطيننا وراجاتنا ليتمكنوا من بلوغ مآربهم . فخلت ايديهم عن سلطنتهم الموروثة واستقلالهم الوطني . ابادوا غيرتنا الملية بقوانين المسكرات وحرية مبايعتها . سلبوا ذخائرنا ونقودنا بالبنوك والمصانع . وهم يعدون انفسهم مع ذلك ملة متمدنة راقية مراقي التربية ويعدوننا ملة وحشية فيعاملوننا معاملتهم البهائم والدواب ونحن عندهم ارذل المخلوقات . واخس الكائنات اتركها لتحرقها في محضرك ومحضر هذا الراجا ونشفي قلوبنا المنكسرة من حزازاتها القديمة »

فما اجابهم الدرويش الاّ بقولهِ « لا يمكن لكم الاقتراب منهم بوجه من الوجوه

لانهم في ظل حراستي » كنت اعلم قبل هذا ان الدراويش لهم اقتدار خاص على الهنود لكني لم اسمع ان درويشاً يطاع الى هذه الدرجة . وبعد تلك المكالمة تركونا وبعدوا عنا وانطفأت النار الموقدة هناك ونام الدرويش امامنا في عرض الطريق . فرفعت راسي الى السماء وشكرت الله تعالى لانهُ جعل هذا الرجل وسيلة لحياتنا وسبباً لنجاتنا من حيث لا نعلم

في الهند دراويش لايحصى عددهم وربما زادوا على مئة الف وكنت في مدة اقامتي في تلك المملكة قد رأيت عدة كثيرة وراعينهم ولا ادري كيف التقينا مع هذا وجاملناه قليلاً فاشترى بتلك النقود نفوسنا . وليس هذا الاَّ من فضل الله وتقديره والشكر حينئذٍ للمسبب لا السبب . ولما تلاقينا مع هذا الدرويش عند ساحل جمنا ولم تكن ظهرت وقتئذٍ اشارة ثورة ولا امارة فتنة فسمعنا منهُ ثلاث عبارات (الاولى) لما نغير عليهِ صهري وحكم على خدامهِ ان يبعدوه من وسط الطريق ويطرحوه في النهر قال « مهلاً ستعم حرية الطرق ويسهل العبور لصنوف الخلائق » وصار الامر كما قال ففتحت السبل للهنود وسائر الشعوب والناس يروحون ويغدون فيها من غير ان يكونوا تحت قوانين التنظيم والتأمين . (الثانية) لما وجه خطابهُ لزوجي قال « سنغلب عباد الله على الكفرة » أليس المسلمون قد غلبوا علينا ؟ وهم يعتقدون انهم على حق ونحن على ضلال . (الثالثة) لما اعطاه ويل الروبية اخذها وقال ايها الطفل هذه الصدقة التي تصدقت بها ستكون فدية لك . اما الاولى والثانية فانهما تحققتا بدون نقصان او زيادة . اما الثالثة فهل تكون هي ايضاً مقرونة بالحقيقة فيقتل طفلي ايضاً مثل ابيهِ وزوج اختهِ . ومع اننا خلصنا من موت عاجل فاني لما تصورت هذا شرعت في البكاء والعويل وكنت ابكي واتوجع وافكر في عاقبة امري وعجائب ماقدّر لي واذا باصوات مختلطة وغوغاء وجلبة فعلمت ان المسافرين لما انقضت مدة اقامتهم رأوا الوقت مقتضياً للمسير وهم الآن على وشك الرحيل . وفي اثناء ذلك ازف الترحال وشدت الرحال فتحركت كتيبة عسكرية من مشاة الاهاند ثم خرج الرّاجا مع اتباعهِ في مركبة فاخرة تليها التخوت والهوادج لزوجاتهِ واهالي حرمهِ ثم الافيال الحاملة للرحالات في الطريق

وكان عبور هؤلاء من جانب التل الذي كنا عليهِ ولما قربوا منا هبَّ الدرويش

من نومهِ وصعد على صخرة ونطق بكلمة رافعًا صوتهُ فنزل الفرسان من مراكبهم وقبلوا يدهُ واحدًا بعد واحد ودفعوا اليهِ دراهم معدودة . ومروا على الترتيب حتى اتى دور الراجا والجمالين والمشاة فنفحوه بما تيسر لهم من درهم وخبز ولباس . ولما مروا بتمامهم ناداني الدرويش واعطاني كل ما اجتمع عندهُ فوجدت مقدارًا كثيرًا من النقود والاطعمة والملابس مما يكفينا بضعة ايام . ذلك هو المحل الذي ابتلينا فيهِ بالمهلكة في اول ورودنا الرباطات وسراي القوافل التي تبنى في شوارع الهند . اما وضع تلك الامكنة فعبارة عن فضاء محاط بجدران محكمة لها باب من طرف واحد وفي داخلها بيوت ومساكن لحفظ الانسان والحيوان من الحر والبرد والامطار الهاطلة . اما حجراتها فانها قذرة تشبه مخازن التجار ليس لها فرش ولا خدم ولا حنفية ولا فيها شيء من دواعي التعيش او الاستراحة مثل دور الضيافة التي للافرنج . وهي معمورة ما هولة عند نزول المسافرين وخربة مهجورة بعد ذهابهم

هذا الدرويش مع قذارتهِ لم تشمئز نفوسنا من روائحهِ العفنة ولا نفرنا من اوساخهِ النتنة . بل كانت سيئاتهُ عندنا حسنات وقبائحهُ محاسن وكنا من صحبتهِ في روض نضير ومن رائحتهِ بين مسك وعبير . فدلنا الى داخل الرباط تتميماً لجميلهِ فاوصلنا الى حجرة صغيرة في وسطها عين والحجرة مستحكمة لوقوعها خلف الابنية والذي يريد الدخول اليها لا بد لهُ من العبور في دهليز طويل وعدة حجرات وكان لها باب اذا اغلقهُ الداخل لا يتمكن احد من ان يدخلها . اوصلنا الى هناك وخرج برهة ورجع بعد قليل فرأيتهُ قد ملأ غرارة كبيرة بالعلف اليابس والتبن فنفرش الارض بهما ثم قال لي « عندك الآن ذخيرة خمسة عشر يومًا فلا تخرجي مع بنتك وطفلك من هذا المقام الاَّ حتى يرحمكما الله ويحصل لكم فرج قريب وتصير اعداؤكم احبابًا او تمر قافلة من ابناء وطنكم فتنقذكم » ثم اودعنا ومضى . وبقينا في ذلك المقام برهة بلا حراك لولا أعناق متطاولة واذان صاغية فلم نسمع الاَّ طنين الحشرات . ومع ما كابدناهُ من انواع العذاب قضينا ليلتنا هذه في هذا المكان باستراحة وسكون . وفي الغداة شرعنا نفحص جوانب مأمننا فوقعت عيني على باب صغير في زاوية من زوايا الحجرة فقلت ليت شعري الى ابن يؤدي هذا الباب وهل يمكن فتحهُ . فاردت كشف المجهول وتلك فطرة متمكنة تحرض

الانسان على استطلاع الخفايا . فحسبنا اولاً اننا نتمكن من قصدنا بسهولة فكسرنا قفلهُ ومع ما سعينا وصرفنا من الجهد في فتحهِ ما ظفرنا بهِ ابداً ثم تعلقنا بالمثل القائل « من قرع باباً ولجَّ ولج ومن طلب شيئًا وجدَّ وجد » وصممنا على اجراء القصد وطالت مدة اشتغالنا بهذا اثنا عشر يومًا الى ان اخرجنا الباب من مكانهِ صباح اليوم الثالث عشر بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع ونحن نتصورهُ باب سعادة فتحهُ يفتح الابواب لنجاتنا من مضيق التعاسة ويوصلنا الى منزل الهناء

الفصل السابع والعشرون

قافلة تعيسة

وما كان الامر كذلك لاننا وجدنا خلف الباب قاعة صغيرة فعلمنا انها مدخل خصوصي للرباط وهي محل اقامة مستحفظ الرباط وقد اغلق ذلك الباب بعد حركة القوافل وذهب هو ايضًا فيئسنا من نجاح املنا . فقالت آلن لاتيأسي لان الجدار المحيط بهذا المقام غير الجدران المحيطة باطراف الرباط وهو ادق منها بناء وكان الامر كذلك فنتحنا منفذًا من هذا الجدار فوجدنا صحراء واسعة الارجاء ممتدة الانحاء ذات خضارة وطراوة فيالها من ساعة ما احسنها واصفاها ورأينا من مسافة بعيدة جادة دقيقة تنتهي الى هذا الموضع بخط مستقيم بحيث لو اراد المسافرون ان ينزلوا هنا لم يكن لهم بدٌّ من ان يمروا في هذا الطريق ثم يردوا الرباط . والمطر عديم الوجود في الصيف فلا تجود السماء بمائهِ ابدًا . ولذلك فالمسافرون لايبيتون في داخل المنازل غالبًا فاذا بلغوا منزلاً حطوا رحالهم في خارجه ولجأوا الى ظل الجدران . فليس علينا في مدة اقامتنا هناك خطر من العابر والمتردد وقد وردت عدة قوافل وصدرت من غير ان تطلع بنا

فقالت بنتي لما وقفنا وراء الجدار فالاحسن ان نهيئ تحت الجدار مخرجًا وسيعًا لنخرج منهُ الى الغابة والصحراء لتحصيل شيء نغتذي بهِ . فقلت احذري من قصدك فانا لانامن من دخول « مائيلا » الحية المشهورة في الهند وهي كثيرة هنا ويكفينا هذا المنفذ لنرصد الطريق بضعة ايام على اننا لانحتاج لتحصيل القوت في عاجل الحال .

هذا وكنا نرصد الطريق على التوالي ننتظر وصول فوج من عساكر الانكليز او ورود قافلة نستظل بلوائها ونعتصم بولائها . مضى على ذلك المنوال اسبوع وفي اليوم الثامن ايضاً اشتغلنا بهذا من ابتداء الطليعة وكانت بنتي في جانبي قد فتحت منظراً آخر . فمضت اربع ساعات وما رأينا في طول الطريق وعرضهِ احداً واتعبنا اعيننا وافنينا اوقاتنا فيما لا طائل تحتهُ . وكان ذلك لعدم وقوفنا على قوانين السفر لدى الاهالي والافرنجيين الذين يعاشرونهم . ولو كنا نعلمهُ من اول الامر لما قاسينا تعب الانتظار فان الهنود يتوخون في تعبية الرباطات والمنازل والمناهل ترتيباً خاصاً بحيث ان المسافر اذا خرج من منزل يصل بعد اربع ساعات الى منزل آخر ليكون محفوظاً من المشقة حتى اذا نام واستراح تحرك من منزلهِ هذا الى رباط آخر ولا يزال كذلك في قطع الطريق حتى يصل الى مقصدهِ

وكانت بنتي احدَّ مني بصرا لحداثة سنها فبعد ان تفرَّستْ هنيهة قالت كاني ارى خطاً اسود في انتهاء تلك المسافة يقوى ويقرب مناروياً رويداً ويعن بخاطري انها قافلة عظيمة . ويا ليت شعري هل تكون هذه القافلة انكليزية فننشرح لها ام هي قافلة الاجال والحتوف التي تعدمنا بمجرد وصولها ويحتمل ان لا تكون كذلك اذ لا يمكن ان تكون مركبة من المكاريين واحمال التجارة . بل يمكن ان لا تكون كذلك ايضاً ويلوح لي انها مشتملة على جماعة من التعساء الذين انقلب مجنهم على ظهره مثلنا يفرون من ايدي الاشرار . والذي اوقعنا في تضارب الافكار سواد هذا الخط المرئي فان اهالي تلك القافلة اذا كانوا من الاهالي فلهم ملابس بيض والابيض لا يرى اسود . واذا كانوا من منهزمي الانكليز فملابسهم تكون حمراً كما هو المعمول المتداول . وخلاصة القول ما زلنا في تردد واشكال والقافلة تقترب والسواد يشتد شيئاً فشيئاً واذا ببنتي صاحت قائلة « قرب القادمون وهذه القافلة مركبة من خمسين او ستين امرأة لهن ألبسة طوال سود ومعهن عشرون نفراً من عساكر الانكليز بعضهم في اول القافلة والباقون في آخرها »

فلما اصبحوا على مسافة قريبة من مسكننا حصل لنا من ملاقاتهم طرب وانبساط حتى كدت اطير اليهم باجنحة الاشواق ولا غرو فان الغريق يتشبث بكل عشب وصحتُ باعلى صوتي وقلت هذه النسوان من الراهبات الكاثوليكيات اللائي يسكن

في دهلي وايقنت انهُ قد اثمرت غروس التمني واقمرت ليالي السعادة فعلينا ان نستقبلهن بكمال الاستعجال . ولكن آه ان ارتياحنا لم يطل اكثر من لحظة وجرت اقلام القضاء على خلاف امالنا والانسان لا يدرك كل ما يتمناه وتجري الرياح بما لاتشتهي السفن . وذلك اني لما تأملت باصحاب القافلة وجدتهم عاجزين عن انقاذنا فقلت ضعف الطالب والمطلوب فان اولئك الامهات والراهبات الروحانيات اللائي حسبناهن حور الجنان او ملائكة الرضوان ورجونا منهنَّ وقاية حياتنا كن شريكات معنا في الشدائد وما العساكر الذين معهن الاَّ شرذمة اصيبوا بالجراح وانكسرت اسلحتهم وتلوثت عمايمهم البيض بالدماء ففرحوا بهذه الحالة المحزنة من الحرب ولما حطَّت تلك القافلة التعيسة رحالها بقاعة الرباط خرجنا من الحجرة وتعلقنا باذيال الراهبات وكلمناهن بالانكليزية ونحن نحسب جماعة من الانكليز يلحقون بهن وتحصل لاهالي القافلة قوة عاجلة من اتصالهم

وبعد الاستفهام ظهر لنا انهن خرجنا من دهلي يطلبن الاكمه ليتفقن مع سائر الراهبات المجتمعات فيهِ ليذهبن الى اله آباد فالتقين في الطريق بجماعة من الطغاة ورأين الطريق مسدودًا من تلك الجهة فعطفن الى مدينة كاوان بور وفي اثناء طريقهن جمعن مجاريح العساكر مع بعض النسوان اللواتي خلصن من مقتل مراد اباد وفرخ اباد خدمة للانسانية ومراعاة للنوعية حتى انتظم عقدهن واجتمع لفيفهن وما قولك في قافلة مؤلفة من النساء العاريات المنكسات الرؤوس وعليهن ملامح الحزن ومظاهر التأثر واطفال في افواههم اثدية المنايا وفتيات كوتْ الوحشة قلوبهن وشقت الفجيعة جيوبهن . ورجال قوض الدهر منارهم . واخمدت الحوادث نارهم يتجرعون غصص الحياة ويتمنون راحة الممات . اولئك الثيبات والابكار التعيسات والعجائز والعرائس البائسات مع وقوعهن في شباك المصاعب كنَّ في رجاء عظيم ان عساكر ملكة انكلترا وامبراطورة الهند وكتائبها المحتشدة التي ملأت الآفاق والامصار صوت صولتها وقهر الاصقاع والانحاء سوط سطوتها لا يقدر احد ان يتغلب عليها وانها ستنال الظفر وتقمع الفتن وتنفذ من من الممالك

يالهذا الامل الباطل والوهم الذي ليس لهُ حاصل . نفوس معدودة في تعاسة غير محدودة . بعد ما وقعوا في مخالب الهنود كيف يؤملون الظفر ويأمنون من طوارىء

الخطر هل تنتج شوكة امبراطورة الهند نتيجة لهؤلاء التعساء الذين يقاسون ضيم الخسف والازدراء وهل يرتق فتق تلك الغايلة العظمى بهذه الاوهام الناشئة عن التمنيات البشرية . كلاً :

ولا يخفى على المنتقدين ان الظلمة يتحلون بحلل التزوير وحلي الحيل لاستيفاء شهواتهم الخبيثة وهم على اقسام : فان طائفة منهم لا يكترثون بلوم لائم وعملهم شن الغارات جهارًا . ليلاً ونهارًا . يترددون في الامصار . مثل المغول والتاتار وطائفة يتلبسون بملابس التلبيس . يسلكون طرق التدليس . يستمسكون بعروة التمدن وصفاء النية وتهذيب الاخلاق ويعتصمون بحبال التربية ويحسبون انفسهم محبين لجنس البشر فينتضون سيوفهم ويهجمون على الملل والاقوام الذين لا يعرفون دسائسهم فيوقعونهم في الشباك ويتمكنون من مقاصدهم باستعمال المكايد والالعاب المسماة بالحيل السياسية فليحترز المرء من هؤلاء المتمدنين الجائرين فانهم يدعون العدالة وهم على ماهم عليهِ . تلك حالة الانكليز مع الهند والهنديين فان الانكليز كانوا يحسبون الهنود قبل الثورة احقر الملل . ويقولون اولئك كالانعام بل هم اضل . ويظنونهم امة وداعة ومعشر استكانة . لكن الهنود لما شاهدوا اجحاف انكلترة واعتسافها اظهروا لهؤلاء المتمدنين انهم عند الضرورة يجتمعون لاستخلاص رقابهم من قيود العبودية وينفضون العار عن مناكبهم واعطافهم . وانظر ما أسرع ما تبدلت تلك الاستكانة بالانفة والوداعة بالخشونة . فابوا ان يرضوا بالذلة فازالوها بمراهف السيوف وسنان الرماح

وعند ذلك فهمَ المتمدنون رصانة عزيمتهم وصلابة شكيمتهم وهم لا ينسون تلك الواقعة ابدًا وما احسن ما قال بعض الحكماء

لا يستخفن الفتى بعدوهِ ابدًا وان كان العدو ضئيلاً
ان القذى يؤذي العيون قليلهُ ولربما جرح البعوض الفيلا

على ان الهنود ليست بينهم وبين الكاثوليكيين عداوة لان القسوس والرهبان والراهبات كانوا يعالجون مرضى الاهالي ويربون اطفالهم التماسًا لمرضاة الله كما ان اولئك النسوان مع كونهن في اقصى درجة الابتلاء جمعن جمعًا كثيرًا من الذكور والاناث في ظل رعايتهن للذهاب الى مأمن كما نوّهنا بهِ آنفًا قبيل هذا : فارادوا البيتوتة في هذا الرباط ثم الحركة منهُ عند طليعة الصبح .

الفصل الثامن والعشرون

﴿ الفوج الهندي ﴾

وقد قدمنا انهُ لا يتاتى للمسافر الاقامة في الحجرات في فصل الصيف لاحتباس أهوينها بل ينامون في ظلال الجدران . اما تلك القافلة فحالما وصلت اهاليها الى حجرات الرباط اتخذوها منزلاً على خلاف الرسم المعهود وما اكتفوا بذلك بل اغلقوا ابوابها من الداخل حتى ما بقي الى ظهر اليوم صامت اوناطق في قاعة الرباط . نامت المرضى في حجرة والمجاريح في اخرى والصبيان والنسوان في واحدة واستراحت الراهبات في المرتبة التحتانية فاصبح المكان اشبه بالمستشفى . وبعد برهة قرب وقت الصلاة فانتصب القسيس المسمى بول قائمًا للامامة واقتدى بهِ كل فرد من افراد الجماعة من بروتستاني وكاثوليكي من دون استثناء وهذه العبادة لها مزية خاصة في احوال الشدة فذكروا الله مخلصين لهُ الدين ناسين اختلاف الطرق وفروع المذاهب الداعيـة لتفريق الكلمة الجامعة الدينية واشتغلوا باياء وظايف العبودية بخضوع وابتهال من غير ان يعتقدوا ان طريقتهم التي يسلكونها حقة وغيرها باطل . وبعد الظهر بثلاث ساعات نزلت في حوالي مسكننا هذا طائفة من السيارة وبعد ساعة استأنفوا المسير في طريقهم من غير ان يطلعونا . وان كان الواردون اقل منا عددًا لكنا خفنا ان يخبروا الاشرار بمقامنا ويشاركوهم في الاغارة علينا ومن الاتفاقات الحسنة انهم مروا من غير ان ينتبهوا لنا فسكنت قلوبنا . ولما دنت الشمس من الغروب ملأنا المشربة والاواني بالماء واعددنا علوفة الدواب ووعدنا انفسنا بالمبيت تلك الليلة في امان على ان نصبح براحة . وفي اثناء ذلك اغلق مستحفظ الرباط مصراع الباب وفيما هو يغلق الآخر رأيناه يخفي نفسهُ خلف الباب وهو يقول « اني أرى فرسانًا يتقدمون » فنظرنا الى الطريق فوجدناه صادقًا في قولهِ فمن اي الفرق هؤلاء الفرسان ياترى هل هم من ابناء وطننا ام من اعدائنا . ورأينا عليهم الملابس الحمر وكانت العساكر الانكليزية والهندية كلتاهما تلبسان هذه الالبسة فلم يرتفع حجاب التردد والوحشة عن ضمائرنا . وكان بين جماعتنا المتحصنين هناك رجلان سالمان احدهما رئيس الموسيقى العسكرية سابقًا والآخر بنجاه باشي (بنجاه باشي اي رئيس خمسين نفرًا من المشاة او الفرسان مثل يوز باشي ودهباشي . وهذه الالفاظ

مركبة من التركية والفارسية) فوضعناهما خلف الباب للعناية بحيث لايخرج من جهتنا صوت صهيل فرس او نهيق حمارٍ فينبّه اولئك القادمين الى وجودنا فشددنا افواه الدواب بالحبال لانّا كنا نعلم انهم لايعرجون الى الرباط على ماجرت بهِ العادة

طالما كان الانسان مغمورًا في بحور النعمة فانهُ يظلُّ غريقًا في نوم الغفلة واذا ابتلي بنقمة او اعترتهُ نكبة وكان ذا راي صائب وفكر ثاقب يحترس من المخاوف والنوازل اشد الاحتراس . ولكوني ابتليت بالسوانح والمصاعب والشدائد والمتاعب اكثر من رفيقاتي لم استطع الجلوس بل شاركت ذينك الرجلين في ملاحظة الطريق وكان ابني يلعب في ساحة الرباط مع الاطفال وبنتي تتحادث مع النسوان فما مضت دقيقتان حتى سمعت البنجاه باشي يصيح صياحًا مخيفًا وقد تلعثم لسانهُ من الدهشة واستولت الرعشة على يديهِ ورجليهِ وجعل ينتفض كقصب يرتعد في هبوب الرياح العاصفة ثم انتبه وقال هذا هو الفوج الهندي الذي كنت مشتغلاً في خدمتهِ . فكان لقولهِ وقع شديد على نفوسنا على انهُ كان لنا قليل رجاء انهم اذا عرجوا بنا يستريحون ساعة ثم يذهبون

فحدث غير ما املناه فان الفرسان حلوا رحالهم ونصبوا خيامهم واخذوا سرج الدواب والقوا عليها الجلال . ثم اوقدوا نارًا واشتغلوا بطبخ الغذاء وظهر انهم يريدون الاقامة خارج الرباط وليالي الهند في فصل الشتاء اثنتا عشرة ساعة بسبب قربها من خط الاستواء . وليت شعري هل يدخل الرباط احد من تلك الجماعة في مدة اقامتهم هنا وهل يرتفع من دوابنا صوت ينبههم الينا نعوذ بالله من ذلك .

انقضت ساعة وما علا صوت فدخلت صحن الرباط ووردت حجرة الجرحى فرأيت القسيس قد هيأ اسباب عبادتهِ وبسط سجادة طاعتهِ يريد ان يصلي صلاة القداس وكان ذلك امرًا جديدًا عندي لاني بروتستانية وهو يصلي على طريقة الكاثوليك . ولما كان القصد الاصلي تقديم واجبات الضراعة الى المعبود الحقيقي اتفقت مع الجمع وصلينا معًا . وفي اثناء الصلاة صهل فرس خارج القاعة فاجابهُ فرس من الداخل فصهلت الافراس كلها دفعة واحدة فاجابتها اصوات دوابنا وتحرك الفرسان عندئذٍ الى الرباط وكسروا الباب ودخلوا كالسيل الجارف الى حجرة الجرحى وسلوا سيوفهم وكان بول مشغولاً بالصلوة فاطلقوا مسدساتهم عليهِ

فامتلأ الفضاء بدخان البارود . ومن العجائب ان الرجل مع كونهِ هدفًا للرصاص ما زال واقفًا منصبًا فهموا بهِ ليقتلوهُ فتساقطت الراهبات عند اقدامهم والتمسن العفو عنهُ . فصاح رجل متعصب من الاهالي وقال لبول باللغة الأُوردنهُ « ارني معبودك » فاخرج بول الصليب من عنقهِ وقال « هذا هو معبودي ونحن اتباع هذا الرسول لانكترث بالموت ولا نبالي بالقتل ولا تزيدنا الشدائد الاَّ تمسكًا بهِ » لقد صدق فيما نطق بهِ لان رؤَساء الاديان والملل لولا الشدائد والاضطهاد لم ترج شريعتهم ولا علت كلمتهم وبذلك تأسست دعائم المذاهب حتى لمعت نجومها المشرقة في ظلام الغياهب

ثم قال الهنود للراهبات نعفو عن اراقة دمائكن على ان تؤَدين فدية من النقود فنادين قائلات لو كان لنا مال ما وقعنا في هذه المحنة . فقالوا لانقبل ذلك ولنتجسس ملابسكن وجيوبكن واحدة بعد واحدة . فشرعن بالمرور من امامهم بالترتيب حتى دنت نوبتي فتقدمت متزلزلة وكنت بلباس اهل البلد ولكنهم عرفوني وسافوني الى حجرة اخرى فقالت احدى الراهبات خلوا عن تلك المسكينة . ومع تعسف اولئك الهنديين لا ادري لاي سبب تجاوزوا عن قتلي لما سمعوا كلامها وليس ذلك الاَّ من مشيئة الله . ولما وجدت نفسي في كنف حمايتهنَّ شوَّش خيال ابني وبنتي ضميري وانا لا اعلم هل هما في عالم الاموات ام في عالم الاحياء وكنت خائفة من خروجهما للتفتيش عني وكأني بهؤُلاء المجارح يساقون كقطيع غنم الى المذبحة . ماذا افعل الآن ويا ليتني كنت بعوضة ضعيفة لأطير اليهما اوليتني كنت نملة صغيرة لانسلَّ تحت الاقدام واوصيهما بان لا يخرجا من مقرهما بل يطلبا النجاة من الله وينتظرا حتى يرتوي اولئك السفاكون من شرب الدماء وينطفي لهيب غضبهم فيرجعوا . وخلاصة القول ان القتل والفتك دام ساعة كانوا يبقرون فيها البطون ويحزون الرؤُس ويريقون الدماء . ولما ادلهم الليل اشعلوا مشعلين وبادروا بتعرية اجساد القتلى وسلب الثياب وكنت وقتئذٍ في غاية القلق على ولديَّ مخافة ان يكونا قد انخرطا في عداد المقتولين

ولما قضوا اوطارهم من تأْييد الجور والظلم اضرموا نارًا في قاعة الرباط واشتغلوا بتقسيم الغنائم وكنت مع الراهبات في زاوية ننظر اليهم . فرأَينا رئيس

هؤلاء الجماعة جاثيًا على ركبتيهِ في جانب ولم يشاركهم في الجناية من اولها . ولكنهُ لم يمنعهم من اجراء مقاصدهم الاَّ حين ارادوا ان يؤذوا الراهبات فانهُ زجرهم ونهاهم اما انافكانت وساوسي على اطفالي تزداد لحظة بعد لحظة وانا ارصد فرصة للدخول الى الحجرة للبحث عنهم فسنحت لي فرصة لنيل المقصود وذلك ان رجلاً من الهنود كان قد اصابهُ جرح في صدره وما زال الدم يتدفق منهُ حتى اغمي عليهِ فحسبوهُ ميتًا وما عبأوا بهِ ثم افاق من غشيتهِ ونهض وقال لا تحسبوني ميتًا فانَّ فيَّ رمقًا واذا ربطتم جراحي ارجو ان لا اموت فاضطر اولئك الاشرار ان يلتجئوا الى الراهبات فان العناية بالجرحى من شرائط الرهبانية فذهب بول مع راهبتين الى هذا الجندي المجروح فرافقتهم في عيادتهِ ولما رأوا الجرح طلبوا ماء لغسلهِ للوصول الى فوهة القرحة فانتهزت الفرصة وقتئذٍ وحملت اناء لتقديم تلك الخدمة وصببت الماء وكانت خدمتي هذه اضطرارية بمرأى من سائر رفقاء ذلك الرجل الذين تجمهروا حول الراهبات فرقت قلوبهم ونظروا اليَّ بعين الحناوة اما المجروح فان روحهُ فاضت بعد ساعة على اثر تلك الضربة القاضية ومن النوادر ان هذا الهندي هو الذي اذى التسيس اولاً . فقال بول « انظروا الى هذا الرجل الذي مات امام ابصاركم فانهُ هو الذي اعترض عليَّ واراد مشاهدة معبودي وسحب الصليب من عنقي عنفًا ها اني اغسلهُ وارسلهُ الى الخالق الذي بيدهِ ازمة كل شيء ليرى جبروت الحق » فاغتنمت الوقت ودخلت الحجرة ولم اخط خطوة حتى عثرت رجلي بجثة فسقطت على وجهي وتلطخت ثيابي بالدماء وما زلت امشي وقد داخلتني وحشة شديدة وقلت لا يبعد ان الطغاة قتلوا ابني وبنتي ايضًا واوشكت ان اصيح واقول « ايها السفاكون استحلفكم بالله خذوني وقطعوني اربًا اربًا هل حسبتموني هندية فعفوتم عني لا تنظروا الى ضعفي ومسكنتي فاني من الداعدائكم » واعترفُ للقارئ اني نطقت بعبارات كفرية فاذا لامتني والدة فارجوان لانصاب مصابي . فقد وصلت باب الحجرة وناديت الاولاد فما سمعت جوابًا وكررت النداء مرارًا فما خرج نفس من متنفس فازدادت وحشتي وقلت يا لتعاستي وخيبة املي قتل طفلي وبنتي . ثم تقدمت بضع اقدام كخائف مترقب وناديتهما ثانية الآن : ويل : فسمعت وقتئذٍ جوابًا خمدت بهِ لوعتي وهمدت روعتي وقلت لهما من عدكما فقالا عندنا امرأتان . فارتحت ارتياحًا شديدًا من تلك الصدف واوصيتهما بعدم

الخروج وان ينتظراني عند طلوع الشمس وعدت مطمئنة الخاطر وجلست عند الراهبات وهنَّ يرتعدن من برودة الليل

الفصل التاسع والعشرون

﴿ اذا جاء القدر عمي البصر ﴾

والخلاصة اننا قضينا هذه الليلة ولما طلعت الشمس هبَّ الاشرار من نومهم وحضروا للحركة وقوضوا خيامهم في وقت قريب وانتشروا افرادًا وازواجًا وحملوا مقتوليهم في العربات ليطرحوهم في نهر جمنا على حسب الرسم الذي تعودوه . ولما خلت الاطراف من الاشرار قالت لي راهبة ان كنتِ مصممة على السفر معنا فانتظمي في سلكنا وانت تعلمين ان الهنود لهم رعاية خاصة في حقنا فتكونين مطمئنة من الصدمات . قلت نعم لكنكن تقصدن الذهاب الى اله آباد ومن هنا الى تلك المدينة ستون فرسخًا اما نحن فننوي الذهاب الى مدينة كاوان بور ومسافتها الى هناك اثنا عشر فرسخًا . فقالت الراهبة لنا في اله آباد معبد حصين من دخله يكون آمنًا مطمئنًا فقلت لها اما تعلمين ان الجنرال وهلر ايضًا في كاوان بور يتلألأ كوكب اقبالهِ ثمة . فاجبن باجمعهن ان فرضنا ان الجنرال المذكور كانت لهُ قدرة في الامس يمكن ان لا تكون اليوم والعاقل لا يترك المقر المعلوم لاجل مفروضٍ موهوم . وبعد ذلك رأينا ان ندفن جثث القتلى بان نجمعها في حجرة لانها كانت مطروحة على الارض بشكل قبيح لا يقتضي ناموس احد ان يتركها لان هؤلاء السفلة ما تركوا عملاً شنيعًا الاَّ فعلوه في النسوان قبل القتل وكنا عاريات الابدان مكشوفات العورات فجمعنا الاجساد ووضعنا بعضها فوق بعض وحينئذٍ خرج من تحت الزبالة والارواث المجتمعة هناك رجل تفرسنا فيهِ فاذا هو البنجاه باشي وكان لما دخلت الطغاة الرباط اختبأ تحت الكثافات حتى سلم من الآفات لكنهُ كان مندهشًا مضطربًا لخوفهِ على زوجتهِ واطفالهِ لانهُ كان يتصوَّر انهم قتلوا وكانت عبرات الحسرة بادية على وجنتيهِ فخطر بقلبي الامرأتان اللتان عند اطنالي في تلك الحجرة فبشرتهُ بذلك وانطلقنا الى الخلوة فوجد زوجتهُ واطفالهُ ولما فرغنا تحركنا الى اله آباد وبلغنا وقت الظهر الى ساحل نهرٍ فوقفنا في ظل شجرة عظيمة

ادفع التعب . والحوادث التي اتفقت لنا في هذا الطريق مفصلة لكنها ليست قابلة لتقيد في هذا التاريخ الوجيز

وبعد يومين من هذه السفرة رجعت بعقلي الخفيف الى متابعة رأيي السخيف في الذهاب الى كاوان بور وكلما اصرّت الراهبات على الانصراف من خيالي ما انصرفت وابى القدر المحتوم الاّ انفاذ ما اضمره من الازل وكنت اتصور اننا بعد الورود الى كاوان بور نهيأ اسباب معاشنا ولوازم انتعاشنا وكان البنجاه باشي يرغبني في ذلك الطريق . والخلاصة اننا ودعناهن في اليوم الرابع وتحركنا الى كاوان بور وما زلنا نقطع الطريق حتى اشرفنا على المدينة ولا نعلم ان « نانا صاحب » الشرير المشهور الذي هو رئيس فرقة طاغية الآن مالك كاوان بور ومضافاتها والجنرال وهلر الذي عليهِ جلّ اتكالنا واستظهارنا محصور في المستشفى النظامي وقد اطلعنا على ذلك بعد قطع المسافات والوصول الى ساحل نهر كنك وقد بلغنا هذا المكان بوضع غريب فان عساكر نانا صاحب كانوا يتجسسون ضفاف النهر ليأسروا الافرنجيين الذين ينوون الذهاب الى كلكوتا واله آباد و بنارس من هذا الطريق فشاهدنا بعض مسلمي الرستاق ورقّ لحالنا وقال ان كنتم تريدون الحياة فعليكم بالاحتراس من دخول المدينة واختفوا في خمائل نهر كنك وغياضهِ الملتفة عسى ان يحصل لكم فرج من الشدة ثم استفزتهُ المروءة وبذل لنا مقدارًا من الطعام واللباس فوق تلك الحفاوة والاشفاق . فندمنا حيث لا ينفع الندم من عدم سماع نصيحة الراهبات ولو اصغينا الى نصايحهن ولم نغتر باتباع آرائنا السخيفة وعقولنا الناقصة لكنا الآن على غاية ما يرام من الامن والراحة والرغد والدعة ونعوذ بالله من سخافة العقل وعماوة البصر . هذا وكانت الشمس حينئذ قريبة من الزوال فقلت لرفيقي اذا اظلم الليل فلندخل المدينة فصدق رأيي وذهبنا الى حوالي الحصار فما وجدنا احدًا من مخالف وموافق وقد احمرت منائر المساجد وقبب المعابد من انعكاس الشفق عليها ونهر كنك يجري و يلتوي بجانبنا كثعبان من الذهب فزالت بعد عدة دقائق حمرة الشفق وخيم الغسق ثم انسدل سجف الظلماء رويدًا رويدًا واختفت بزوالها علائم الامنية وآثار الرجاء عن انظارنا فمسنا الاعياء ووقعنا من شدة التعب عن غير اختيارٍ وكان البنجاه باشي لعلمهِ بالموسيقي يخرج في بعض الاحيان

آلته الموسيقية و يشغلنا بايقاع الانغام تنشيطًا للروح . اما في هذا اليوم فكانهُ احس بنكبة قريبة او عزم على ادبار عاجل فكان منقبضًا على غير عادتهِ . وفي هذه الحالة سمعنا خفق النعال ورأينا فرقة فرسان كانوا خمسين نفرًا تقريبًا مروا من امامنا راكضين افراسهم في اشد ما يكون من التعجيل . فما مضت لحظة حتى رأينا طائفة أُخرى فلاح لنا ان المارين اولاً من الفئة الطاغية وهؤلاء القادمون انكليز فقعدنا في قارعة الطريق وانتظرنا وصولهم ولما وصلوا تكلمنا معهم باللغة الانكليزية فوقفوا باجمعهم دفعة واحدة فشرحنا لهم على سبيل الايجاز قصتنا . وكان زعيم تلك الجماعة شاباً لا يعرف معنى المروءة او الشهامة فما اكترث بتظلمنا وقال « نحن معذورون لاننا لا نقدر على قبولكم . وقد غرقنا في تيار الحيرة ولا نعرف مخرجًا وملجأ لحفظ نفوسنا لو كنتن رجالاً امكننا مرافقتكن لقدرتكن على الحرب والفرار عند الغلبة والانهزام اما الآن فماذا نفعل بنسوان واطفال صغار وهذا الرجل الذي معكن ان كان يريد المرافقة نقبلهُ » فقال البنجاه باشي لا ينسى لي ترك زوجتي واولادي ولما سمع ذلك الجواب ثنى عطفهُ عنا كبرًا وانفة ومضى من غير ان يتكلم بكلمة واعرضوا عنا فانتقت انا وبنتي مع زوجة البنجاه باشي وعدونا في اثر ذلك القائد رئيس الجماعة وقلنا « بالله عليك ايها الغيور العظيم الشان وخادم ملكة انكلستان ألسنا بنات نوعك فابن رعاية الحقوق وملاحظة الانسانية ولوازم البشرية الست شاباً تريد بعد الصيت وشرف الذكر فابن حميتك وفتونك هل يجوز في قانون مروءتك ان نتركنا في هذه الورطة الوبيلة بعد ما تخلصنا من تلك المخاطرات ولذنا بك كيف نتركنا في بيداء الحيرة ونذهب . تصور بالله عليك ان كانت امك واختك في حالنا ما الذي كنت تفعلهُ » فحثحث فرسهُ وقال « اطلب سلامتكن » ومر من غير ان يجيبنا فصرنا اخيب من القابض على الماء ومع ذلك ما قطعنا حبل الرجاء وعقبناه وتمسكنا بهِ واخذنا بعنان فرسهِ وذكرنا اسمنا واسامي ازواجنا وما اخفينا دقيقة من ذكر اصلنا ونسبنا وانسبائنا ولما فهم اننا صواحب حسب وعنة وان صهري كان معهُ في الخدمة العسكرية رق لحالنا وقابلنا بوجهٍ طلق ولاحت على وجههِ تباشير الرضاء . ورضي ان يذهب بنا الى مأمن الجنرال وهلر واخذ كل واحد منهم واحدة منا من خانهِ على فرسهِ وما زالوا بنا حتى وصلنا مأمن السردار المذكور وكان قد حاصر نانا صاحب وامتدت

المحاصرة حتى وهنت قوى المحصورين ونفدت ذخيرتهم وما وافاهم مدد . وبعد الاقامة بضعة ايام رأوا ان التوقف في المستشفى بهذه الحالة لا يجدي نفعاً فرضي السردار بالتسليم على شرط التأمين وسلامة الذين في معيته ليعبروا نهر كنك الى مدينة اله آباد . ولا اشرح شروط تسليم هذا السردار وخروجه من استحكامه لان المؤرخين يثبتونها في طي تواريخهم

الفصل الثلاثون

﴿ الخروج من المستشفى ﴾

وفي اليوم الذي استتب امر المتاركة كان يوم خروجنا من المستشفى فاقعدوني مع طفلي وبنتي في عربة مسقفة والبافون في عربات اخرى وساقونا نحو الساحل وكانوا قد اعدوا عدة كثيرة من السفاين الصغار والزوارق وحلف نانا صاحب ان لا يضمر شرًّا لشخص الجنرال وهلر واتباعه الذين في حمايته . وكانت العساكر الهندية قد اصطفت في طرفي المعبر ووراءنا صفوف ضخمة والوف من الناس وما اصطفاف الهنود الا لايهامنا انهم حضروا لمحافظتنا . فعبرنا من وسط الصفوف حتى بلغنا شاطىء النهر وركبنا السفن

ولما تحركت سفينتنا سجدت لله شكرًا وقلت لقد اينعت دوحة الصبر وغيض طوفان البلايا واستوت سفينة اعمارنا بعد موج الهلاك على جودي النجاة . وقصرت ايادي الاعادي من التعدي والتطاول وحال الماء بيننا وبين الاشرار فما اطبقت فمي عن التشكر واذا بهؤلاء الاراذل الانذال اطلقوا المدافع الينا من كل الجهات فخرقت القنابل تلك السفن واغرقت جمعاً كبيرًا وبلغت سفينتنا ثلمة عظيمة وكنا على وشك الغرق فسافتنا الريح الى الساحل حتى خرجنا الى البر .

ولا ريب ان تلك الوقائع تثبت في بطون الكتب والصحف مع ما ارتكبه الاهانده من المنكرات وكيف نقضوا عهودهم فخدعوا العساكر والقواد واغتروا بظواهرهم حتى قتلوا اشر قتلة . وحينئذٍ اختبأ الجنرال وهلر في غيضة فاسروه على الفور وقتلوه من

ساعتهِ اما انا مع بنتي وابني فوقعنا فوق الرمال وجعلنا الموت نصب اعيننا ننتظران يحملوا علينا ويسفكوا دماءنا . اغمض عيني من غلبة الخوف وافتحها في بعض الاحيان فما ارى الاَّ بقر البطون وتقطيع الابدان ورمي الاطفال الصغار الى الهواء وقطعها نصفين في اثناء سقوطها فاخفيت طفلي تحت جسدي ونمت فوقهُ كدجاجة تحضن فراخها ومما يستحق التعجب ان الاشرار كانوا يجعلون رؤس القتلى وارجلهم وايديهم آلة للعب والتفريح يطرحونها من مكان الى مكانٍ كاطفال المدارس اذ يلعبون في الشتاء بكرات الثلج

ولم يزل الفتك والقتل جاريًا حتى دخل نانا صاحب مع جماعة من ارباب المناصب في هذه المذبحة فاشار الى الاشرار فاغمدوا السيوف فجمعنا نانا صاحب وكانت بقية المذبحة من الذكور والاناث مائة وثمانية اشخاص . فامر بادخالنا في المدينة فاوردونا الى مكان امن وهيأ لنا اسباب معيشتنا . وهذا اول مرة رأيت هذا الشخص اعني نانا صاحب وقد هاجت الضمائر وتنوعت الاقوال في حقهِ على اني ما شاهدت منهُ الاَّ خيرًا . فليقل كل احد ما يقول . فاني لا احسبهُ مقصرًا في محافظتنا ولا اظنهُ سببًا لهذا القتل الاخير بل وجدتهُ شابًا طلق المحيا متين الحركات مجدًّا في الامور غير هازل تلوح على سيماه علائم الكفاءة ذا قريحة حسنة يبلغ من العمر ثلثين سنة ولا اتردد في قولي هذا لان اولئك الناس الداخلين في حوزة حمايتهِ لو اطاعوا اوامره ما وقعوا في المهالك الآتية

والذي سبب نقض العهود انا لما ركبنا السفن لنعبر نهر كنك بعد تقرير الشروط اشتعل مستودع البارود الكائن في المستشفى النظامي على حين غفلة من غير ان تظهر علة الاحتراق فظن الاهالد ان جمعًا من الانكليز تحصنوا ثمة بخيال المدافعة والمخاصمة وكان الجنرال هاولوك على مسافة قريبة من كاوان بور وقد جاء لاستخلاص وهلر فتحققت عندهم تلك الظنون فحكموا باعدامنا قاطبة . وبعد ان ظهرت لهم برائتنا من هاته التهمة نجانا نانا صاحب وتعهد بحراستنا . ومجمل القول انهُ امتدت اقامتنا في ذلك المأمن خمسة عشر يومًا على شرط ان لا نتخابر مع الخارج مطلقًا . فما تركت بعض النسوان رذالتهن فاعمى القدر ابصارهن وشرعن بالمكاتبة والمخابرة من داخل المأمن بمعاونة الجواسيس الذين كانوا يربطون المكاتيب بالاحجار الصغار ويرمونها

من الخارج الى داخل حائط الحصار . فعلمنا ان عساكر انكلترة الذين في معية الجنرال هاولوك هزموا اتباع نانا صاحب وسيدخلون المدينة قهرًا في اقرب وقت . وفي اليوم الثالث سمعنا طلقات مدفعية متوالية كانت تخبرنا ان في خارج المدينة انقلابًا عظيماً .

وفي الحال دخل مأمننا مامور من مأموري السردار وأمر باخراج النسوان اللائي خابرن الخارج فاخرجهنّ فما خرجن الاّ وقتلن ثم هجم الاهالي بهذا المأمن وشرعوا باراقة الدماء وازهاق الارواح . كنت أرى الموت واقفًا يحصد الرؤوس ويجني نفائس النفوس . وما زالوا ياتون على الصفوف واحدًا بعد واحد . ولما انتهت الكنانة الى الاهزع ولم يبق في القوس منزع بلغت نوبتنا فسحبوا بنتي بخصلة من شعرها وقتلوها ثم اخذوا طفلي وقتلوه فسقطت وما فهمت ما فعلوا بعد لاني مكثت ثلاث ساعات في حالة الاغماء ولما فتحت عيني وجدت المهج قد سالت من مسايل الابدان وجرت الدماء كالانهار في الوديان وشاهدت رجالاً ونساءً من بقية الانكليز قد اجتمعوا حولي ولكن الحزن غلب عليّ فطفقت ابكي وانوح واشهق واصيح . آه هل على كرة الارض امرأة بتعاستي ومع هذا لا يدركني الموت ولا يريحني لئلا ارى تلك الاهوال التي تنفطر من معاينتها الاكباد . ولو كانت امرأة حجرًا لماتت ضجرًا . او حديدًا لسالت صديدًا

لو ان مابي بصخر البيد لانصدعا او بالثرى ثار او بالخالق انقلعا
لو ان مابي بطير الجو لانتشرت رياشهُ وغدت اوصالهُ قطعًا

وخلاصة القول ان الجنرال (هاولوك) فتح المدينة بعد بضعة ايام وارسلني من كاوان بور الى اله آباد وسافرت منها الى بنارس ثم كلكوتا . فركبتُ منها باخرة (كلومبو) حتى اتيت باريس ولاقيتكم . وهذه قطرة من بحر نوايبي وهاك ايها المطالع الكريم شرح قصتي . فما افعل بعد ذلك وقد قيل غاية كل متحرك الى سكون . ونهاية كل متكوّن ان لا يكون . وليعتبر المطالعون بمجاري حالاتي وليؤدوا حقوق النعم والامنية والرفاهية التي يتنعمون بها فان يد القضاء فوق ايديهم . تطرح ارباب العزة في مطارح الذلة وتقعد اصحاب الغنا . في رماد الفنا . ولله العزة يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير .

خاتمة الرواية

قد حصل الفراغ ولله الحمد من تعريب هذه القصة وتبييضها في تاسع عشر شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ١٣١٦ الهجرية الموافقة مع سنة ١٨٩٨ الميلادية . وارجو من الادباء ان يغضوا طرفهم عما يرون فيها من الاخلال والاجحاف فاني انما اقدمت على صناعة الترجمة من باب التطفل وتطاولت على ذلك طمعاً في طلاوة الجديد مع قصر الباع وضيق الذرّاع واملي وطيد انها تقع موقع الاستحسان لرقة ما اشتملت عليهِ واقول في ختام كلامي

اللهم ادم فينا نعمة الامن والامان ووفقنا ان نرى الحب والولاء قائمًا بين الامة المحمدية والجامعة الاسلامية لتتفق كلمتنا وتجتمع سواعدنا فنتخلص من عبث الاجانب فان هذه سعادة عامة وغبطة تامة وصلى الله على نبينا الاكرم وعلى آلهِ وخلفائهِ العظام ما توالى الملوان وتعاقب القمران (المترجم)

« ميرزا يوسف خان »

(بتبريز)

تمت

مؤلفات جرجي افندي زيدان منشئ الهلال

(١) فتاة غسان هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عاداتهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة غروش والبوسطة غرش ونصف

(٢) ارمانوسة المصرية (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(٣) عذراء قريش هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان ووقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٤) ١٧ رمضان او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة ستون باره

(٥) المملوك الشارد (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في اوائل القرن التاسع عشر على عهد المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ثمانية غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٦) اسير المتمهدي رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٨٠ في دمشق . ثمنها عشرة غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)

(٧) استبداد المماليك (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ثمانية غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٨) جهاد المحبين رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(٩) تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذه الايام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيهِ مائة رسم واربع خارطات ثمنهُ اربعون غرشًا صاغًا واجرة البوسطة ٥ غروش

(١٠) ﴿ تاريخ الماسونية العام ﴾ وهو تاريخ الجمعية الماسونية منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ عشرون غرشًا صاغًا واجرة البوسطة غرشان

(١١) ﴿ التاريخ العام ﴾ الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصًا مصر مزين بالرسوم ثمنهُ ثمانية غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(١٢) ﴿ الفلسفة اللغوية ﴾ فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(١٣) ﴿ جغرافية مصر ﴾ (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصًا القاهرة ثمنها وحدها ثلاثة غروش ومع الخارطة ٥

(١٤) ﴿ ردٌّ رنان ﴾ ردٌّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنهُ غرش واحد

(١٥) ﴿ ملخص تاريخ اليونان والرومان ﴾ مزين بالرسوم ثمنهُ ثلاثة غروش والبوسطة عشرون باره

(١٦) ﴿ تاريخ انكلترا ﴾ هو ملخص تاريخها ينتهي الى آخر الدولة اليوركية سنة ١٤٨٥ وفيهِ رسوم واشكال ثمنهُ ٤ غروش والبوسطة غرش

الهلال

هي مجلة علمية تاريخية صحية لمنشئها جرجي افندي زيدان تبحث في كل الابحاث العربية الاسلامية وتواريخ الامم الشرقية والآثار الشرقية والاداب الشرقية وفي كل ما يحدث من الاختراعات والاكتشافات في العلم والصناعة ويلحق بها فصول من الروايات التاريخية الاسلامية . بدل اشتراكها ٦٠ غرشًا في القطر المصري وعشرون فرنكًا في الخارج ومن اراد الاطلاع عليهِ فليطلب مثالاً منهُ فيرسل اليهِ مجانًا

وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال بالفجالة بمصر

(المراد بالغرش في هذه القائمة الغرش المصري وهو يساوي ربع فرنك تقريبًا)

A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

892.78:M663thA:c.1
مينارد ،فلكس
ثورة الهند او المرأة الصابرة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01044052

892.78:M663thA
مينارد ،
ثورة الهند او المرأة الصابرة ،

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
MAR 25 '92	AT BINDING		

892.78
M663thA